



كامل كيلاني

الرائد العربى لأدب الأطفال

تأليف
عبد الغنى البدوى





كامل كيلانى

الرائد العربى لأدب الأطفال

تأليف : عبد الغنى البدرى

أنفع النـاسَ وحَسْبى

أننى أحيـــــــا لِأنفع

أنفـع النـاسَ ومالى

غير نفـع الناس مطمـع

كامل كيلانى

تقديم

بقلم : رشاد كامل كيلاني

ليس من السهل أن نحدد متى بدأ أدب الأطفال يأخذ مكانه بين ألوان الأدب المختلفة ، فالأنواع الأدبية كما هو الشأن فى كل شيء يحيا ــ لا تولد كاملة · ولا تنشأ تامة ، وانما تتدرج فى نشوئها وتطورها ، حتى تعلن وجودها ، وتأخذ مكانها اللائق بهـــا · ومؤرخــو أدب الاطفال لا يستطيعون الا أن يضيفوا اليه ما وضع (عثمان جلال) من أزجال قصصية فى كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) · وهى من الأدب المترجم ، ولا يستطيعون كذلك الا أن يذكروا أراجيز شوقى ، تلك التى تتضمن حكايات وأساطير ، أبطالها من عالم الحيوان ·

كذلك مازال منا من يحفظ أو من ســـمع الأناشـــيد والأهازيج التى كان يترنم بها فى مكاتب التعليم ومدارسه ، آباؤنا فى طفولتهم : مثل أنشودة العصفور الحبيس ، التى يقول فيها :

الحبس ليس مذهبى ... وليس فيـــه أربـــى
ولست أرضى قفصا ... وان يكن من ذهـــب

ومثل أنشودة استقبال الطائر التى يقال فيها :

أيهـــا الطــائر أهــلا بمحيـــاك وســـهلا
فقت كل الطـير شـــكلا زانه ذاك الهـــديل

وهنالك أيضا تلك الحكايات القصار التى ترددت زمنا طويلا على السنة الأطفال من أهل الجيل الماضى أو الذى قبله .

وهل ننسى منها المثل الذى كان يبدأ بقوله :

يحكى أن غزالا عطش مرة ٠٠٠٠

كل ذلك كان من بعض اللوامع التى مهدت لظهور رائدين فى أدب الطفل ، أحدهما فى النظم ٠ والآخر فى النثر ، وان كانت له فى الشعر مشـــاركة .

كلاهما كان فى الصف الأول من الأدباء ، ولكنهما فى وعى مبكر ــ آثر كل منهما لنفسه أن يرتاد هذا الميدان الجديد فى محاولات جادة ، وفى خطط محكمة ٠

واليهما يرجع الفضـــل الأول فى دعـم أدب الأطفال وفى توسيع آفاقه ٠

والشاعر الذى نذر الجانب الكبير من فنه لأدب الاطفال هو محمد الهراوى ، الذى افتن فى منظوماته شكلا وموضوعا ٠

فقد كان يختار من الأوزان الشعرية أيسرها حفظا وأخفها على السمع ، وكان لتمكنه وأصالته يصطفى من مأنوس الالفاظ ما يمتع الذوق ، أما الموضوعات فقد كانت مستمدة من صميم حياة الطفل وملابساته منطوية على توجيهات حكيمة وفى المعاصرين لنا من لم ينسوا قوله :

أنا فى الصـــبح تلمـــيذ وبعـــد الظهر نجـــار
فلى قـــلم ومســـطرة وأزميـــل ومنشـــار

أما رائد التأليف للأطفال فى ميدان النثر ، فهو : « كامل كيلانى » ٠

ولقد كان اقتحامه هذا الميدان مغامرة ، فانه كان يشق طريقا جديدا وكان يمشى على أرض صلبة ، وله عند كل خطوة عقبة ٠

ولعل حماسته لروائع الأدب العربى هى التى أوحت اليه أن يقتحم ذلك الميدان ، فانه لما قدم الى قراء العربية أدب «المصرى» و «ابن الرومى»

« وابن زيدون » نصوصا ودراسات ـ هاله ألا يجد هذا الأدب مساغا الا عند الخاصة من المتأدبين . فهفت نفسه الى أن يستمتع بالأدب العربى أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة ، وهداه فكره الى أن ذلك لا يتحقق الا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب اليه تلك المناهل العذاب .

فمضى يكتب للأطفال مؤلفا ومترجما ومقتبسا ومقوما ومفصحا ، وأعنى بالتفصيح : نقل القصص والحكايات والأساطير من مروياتها أو من كتابتها الركيكة المسفة الى بيان فصيح بلسان عربى مبين .

ولقد كان كامل كيلانى فى ارتياده لأدب الأطفال عالمى النزعة انسانى الروح .

فلم يقف عند الشرق يحيى بدائع « ألف ليلة وليلة » . « وطرائف جحا » . « وأساطير الهند » .

ولم يقتصر على الفكر العربى يدنى منه فلسفة ابن طفيل فى « حى ابن يقظان » وأدب « ابن جبير » فى رحلته الى مصر والحجاز ، وانما تعدى ذلك الى أساطير العالم والى أشهر قصصه فقدم « روبنسن كروزو » و « جيلفر » ، ونخبة من روايات « شكسبير » . وكان كذلك عميق النظر ، بعيد الأفق ، يجعل التسلية فى العرض القصصى سبيلا الى الافادة والتأثير .

فجاذبية القصة عنده وسيلة لا غاية .

ولذلك انطوى أدبه للأطفال على تربية قومية ، وتقويم خلقى وتوجيه اجتماعى ، الى جانب توسيع المدارك بالمعارف والعلوم .

وهكذا قصد كامل كيلانى لمختلف هذه النواحى من الكتابة للاطفال ، يلزم نفسه القيام بأعبائها جميعا :

كان يضع النماذج فى مخطط واف لما يجب أن يكون ، حتى ترك ـ كما قال الأستاذ أنيس منصور فى مقال له بعنوان : « ألف كتاب اسمها كامل كيلانى » .

والرواد فى كل ناحية من نواحى الاصلاح انما يحسون بواعيتهم ويرون ببصيرتهم أن الوقت قد حان لعمل جديد .

فهم يعطون اشارة البدء ، وحسبهم ذلك من فضل ، وهذا ما كان فى شأن أدب الاطفال .

فقد زال من الأفكار وهم الترفع عنه ، والتقى بذلك وعـــى المربين ورجال التعليم ورغبتهم فى أن يكون حظ الناشئين العرب من متعة القراءة والاطلاع حـــظ النشء فى الأمم المتحضرة ، فأقبلوا يكتبـون للأطفال ، واستنار الطريق ، وتعدد المؤلفون أو المشرفون على التأليف .

ومازلنا نظفر يوما بعد يوم بالكرام الكاتبين ، حتى ليسعنا القول فى غير مغـالاة . ان لدينـــا مكتبة للاطفال صـــالحة للتجديد والنماء والازدهار .

ونحن فى هذا العهد الثورى الذى نحرث فيه أرضنا من جديد أحوج ما نكون الى أن نوجه عنايتنا الى أدب الأطفال ، ونجعل منها مادة تتحدد فيها المبادىء والأغراض والاهداف التى يتكون منها مجتمعنا الحاضر ، فيجب أن تكون قصص الاطفال تصويرا للبيئة ، وتمثيلا للروح ، وتهيئة للحياة التى تقوم على دعائم من الصناعة والعلم .

وكذلك ينبغى أن تتطور الشخصيات الموروثة من الأساطير . فلا تكون شخصيات رعية وأفراد ، وانما تصور على أنهـا شخصيات شعبية تستجيب لحقائق الحياة وأوضاعها الرشيدة ، حتى يستطيع الطفل أن يجد فى هذه الشخصيات اسوة له يقتدى بها فى مستقبله المرجو ، فيقوم بدوره البطولى فى واقع الحياة التى يحياها ، وفيما يحيط به من ملابسات .

وعلينا كذلك فى مرحلة التخطيط لأدب الطفل أن تقـدم الأساطير العالمية لكل الشعوب لناشئتنا ، وأن يطالعوا القصـــة الهندية ، والقصة الصينية ، والقصة الروسية ، والقصة الافريقية .

ولكن لا نترجم تلك الأســـاطير ترجمة تسىء الى أغراضنا التربوية والقومية . بل نترجمها عن أصلها ونهذبها ونخليها مما يصور استعلاء بعض الشعوب على بعض ، ونعلل مواقفها تعليلا يتمشى مع مبادىء الخير والحق والعدل والسلام ، وادراكا لتقاليد الشعوب وعاداتها ، ادراكا يمكن من بث روح التعاون الانسانى السلمى .

وفى طليعة ما ينبغى الالتفات اليه أن نحدد ألوان الثقافات والمعارف التى يجب تبسيطها للطفل ، حتى نكفل له تنمية كفاياته وايقاظ مواهبه ، وحتى نوافيه بأمهـــات المعلومات التى تكون شخصيته الســوية الواعية المستبصرة ، اذ تكتسب من كل علم وفن وثقافة مايقوى خبرتها بالحياة ، ويعينها على أن تزاول تجربتها فى عزم وتفاؤل وتشبث بالنجاح الى أقصى غايات النجاح .

وأهم من كل ذلك فى تخطيطنا الفنى لأدب الأطفال أن تكون أحداث القصص ، مقدماتها ونتائجها ، وكذلك شخصياتها ـ الواقعى منها والأسطورى ـ قائمة على الصدق ، فكلما كانت الأحداث صادقة على المجتمع ، وكلما كانت الشخصيات صادقة على الناس من حولنا ـ كان التأثير ايجابيا ، وكان العمل الأدبى ناجحا .

واذا كان الخيال عماد القصة وجوهرها فان الصدق يجب أن يكون رائد هذا الخيال الخلاق . أما الكذب على الحياة والأحياء فانه يصطدم بواقع الحياة فى قوانينها الثابتة وتجاربها التطبيقية . وحينئذ يذهب أثر القصة فى النفس ، ولا يكون لها فى السلوك الانسانى صدى .

وليس أسوأ من المغالاة فى تصوير البطولة . والمثل العليا دون ملاحظة الصراع النفسى بين الشر والخير ، ودون مراعاة ما تقتضيه الحياة من عوامل الاغراء ، فان هذه المغالاة تجعل من البطولة شيئا بعيدا مناله ؛ وترينا المثل وهما مسطورا لا وجود له فى الحقيقة .

فلابد فى أدب الطفل أن يرى الناشئة أحداثا تساير طبائع الحياة ، ولابد أن يطالعوا شخصيات يمكن أن تعيش بين الناس .

ومادمنا قد سمينا ما نسلى به طفولتنا « أدبا » فيجب أن نتفق على أن لغة الأدب هى : **اللغة العربية الفصحى** .

واذن فمن حق أدب الأطفال علينا أن يكون بلسان عربى مبين ، وفى فصاحة العربية مجال عريض للكلمات المأنوسة ، والجمل المألوفة مما يجعل التعبير أقرب الى لغة الخطاب .

وليس من المنطق أن نسلى أطفالنا فى نشأتهم بكتب ومجلات عامية اللهجة . ونحن نعدهم ليعبروا عن خواطرهم وأفكارهم تعبيرا عربيا فصيحا . ونعدهم كذلك ليقرءوا فى مراحل تعليمهم منذ المرحلة الاعدادية أدبا عربيا فيه مختارات لشعرائنا وكتابنا البلغاء .

تلك هى التنشئة التى لا تتفق مع مستقبل أطفالنا ، فليكن قصارى ما نقدمه فى أدب الاطفال من الناحية اللغوية التقريب بين المسموع والمقروء . والتدرج بالكلمات والأساليب الى اعداد النشء اعدادا يتيسر به أن يستمتع بأدبنا العربى ، وما فيه من روائع الفكر .

فأما أن ننشئه قارئا للعامية ، ثم نطالبه بعد بقراءة البلاغة العربية ، فذلك هو طلب المحال .

واذا كان لى اقتراح فى النهوض بأدب الاطفال فهو : أن تنشىء الدولة مؤسسة لهذا الغرض . تشرف على هذه الناحية من حياتنا التربوية والثقافية . وأن يرصد لهذه المؤسسة مال لتنمية انتاج أدب الاطفال ، ودعمه ، وتشجيعه .

وهنا ينفسح المجال للكثير من الخطط والمشروعات .

ولعل ما يتخذ فى هذا الصدد أن يكون هنالك مشروع : « ألف كتاب للأطفال » على غرار مجموعة « الألف كتاب » فتتألف لجنة تختار كل سنة عددا من الكتب . وتكل ترجمتها أو تأليفها الى من ترى كفايتهم للترجمة أو التأليف .

ولا شك أن دور النشر المختلفة سترحب بالتعاون مع المؤسسة على تحقيق أغراضها ، وستبذل كل دار فى هذا الصـــدد ما لها من خبرة وتجربة .

وستستطيع المؤسسة بما لها من امكانيات أن تعمل على انشاء مكتبة القرية ، ومكتبة القطار . ومكتبة الحديقة ، والمكتبة المتنقلة . من أجل تنشئة الجيل الصاعد ، من أجل الاطفال .

وانى ليسعدنى أن يعنى الأستاذ « عبد الغنى بدوى » بدراسة رائد أدب الأطفال الأول فى الأدب العـربى ، والدى المرحوم الأســتاذ « كامل كيلانى » .

وقد عرف الاستاذ « البدوى » والدى فى أخريات أيامه وكان على مقربة منه ومن جهوده التى تواصلت الى آخر يوم من أيامه .

رشاد كامل كيلانى



الفصل الأول

نشأته وحياته

ولد « كامل كيلانى » فى العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٩٧ ٠

والده الشيخ « كيلانى ابراهيم كيلانى » الذى يتصل نسبه بالشيخ « عبد القادر الكيلانى » (الجيلانى) ٠

وكانت السيدة والدته تقول الزجل ٠

ولقد عرف الأديب نفسه ، وحدث عن نشأته فقال :

« اسمى (١) (كامل كيلانى ابراهيم كيلانى) ، وأبى كان من أشهر ثلاثة مهندسين فى عصره ، هم : عز (بك) ، وسيد متولى (بك) ، والشيخ كيلانى (بك) ٠

وكنا نسكن فى القلعة فى حضن الجبل ، وكانت لى مربية يونانية مثقفة جدا ، كانت تحكى لى أقاصيص عجيبة ، ملأت على كل خيالى .

أستاذى هو الشيخ (أحمد أبو بكر) ، وهو شاعر بربابة ، يسترزق من حكايات (أبو زيد الهلالى) ٠

وقد حفظت قصائد الشاعر الصوفى (عبد الغنى النابلسى) ، والشيخ (محمود الملاح) و (الاسطى) و (محمد الشيخ) و (العربجى) ٠

وابان نشأتى ذهبت الى (الكتاب) مع ابن أختى ٠ وبقيت فيه أربع ساعات فقط ٠ وكانت سنى أيامها حوالى ست سنوات ٠

كنا جالسين ، منا من يقرأ ، أو يحفظ ، أو يسمع لزملائه .

ونحن فى انتظار قدوم الشيخ ٠

وكنت أنا جالسا وحدى أتفرج بالعيال ٠

وكان فى (الكتاب) عريف ، كان يريد تعليق (يافطة) جديدة أهداها اليه أحد التلاميذ ، وأمسك العريف بمسمار يدقه فى الحائط ، ومال برأسه ، فوقع نظره على دواة الحبر الكبيرة التى يملكها « سيدنا

---

(١) من مقال نشر في مجلة الاذاعة عام ١٩٥٥ وبعض مقالات أخرى

الشيخ » فأمسك بها فى يده ليدق المسمار ، فانكسرت الدواة ، وأغرق الحبر ملابسه ٠

فقال العيال كلهم : (هيه) ! وقلتها معهم ٠

ودخل الشيخ « عبد الباقى » على الضجيج ، وفقد الأولاد النفس ، وبدأ العريف فى مد الأولاد واحدا واحدا !

وجاء على الدور !

وأصابنى الرعب من شدة ضرب العريف للأولاد !

وتوقفت يد العريف عن الضرب ، واهتز سقف (الكتاب) ٠ ومال الحائط الذى نستند اليه ، وتكهربت أرجلنا الصغيرة ٠ ونحن نحاول أن نجرى ، فلا نستطيع !

واعترضت طريقنا عربة (كارو) كبيرة فاندفعت فى وجه الحصان كتلة كبيرة من الحجر ٠ فسقط الحصان غارقا فى دمه وامتلأت الدنيـــا بالغبار الأحمر ، وأمطرت السماء حجارة ودخانا ، وأصيب أكثرنا ، فسقط يطلب الأمان بعيدا عن الموت والحيطان ٠ وســقطت مئذنة المسجد الذى يجاورنا ، وانكفأ النساء والشيوخ والأطفال على وجوههم ، يصلون ويدعون الله أن يحسن الختام ٠

وصفا الجو بعد أن توقف يوم القيامة عن الاستمرار ، بعدها عرفنا السبب ٠

رمى أحدهم (عقب) سيجارة فى مخزن البارود (بالمغاورى) ، فكسر الجبل ، وانحدر بأحجاره وغباره على حينا الملاصق للجبل ٠

ومازالت أكثر مساجد القاهرة محطمة المآذن من أيامها ٠

وكانت هذه الحادثة عام ١٩٠٤ ، ونجوت من (علقة) العريف ٠

وبعدها بسنتين أو ثلاث ذهبت الى (الكتاب) ثانية ، وكانت أمى تهددنى دائما بأن أبى سيضربنى ٠ ولكن أبى لم يضربنى قط وعشت كل طفولتى وصباى أنتظر (علقة) أبى بعد كل غلطة ٠

وما ان نشــــأ « كامل كيلانى » وترعرع ، حتى أخذ يحفظ القرآن الكريم فى (المكتب) ، ثم اتجه الى المدرســـة ، فدخل مدرسة أم عباس الابتدائية عام ١٩٠٧ م ٠

ثم انتقل الى مدرسة القاهرة الثانوية ، ونال شهادة (البكالوريا) .
وقد عكف على دراسة الأدب الانجليزى ، وحفظ الشعر ، اذ كان مشغوفا بالأدب ابان نشأته وصباه .

ثم تعلم الفرنسية ، وانتسب الى الجامعة المصرية القديمة من عام ١٩١٧ م - ١٩٣٠ م . وكان متفوقا في دراسته ، و (زميلا) لطائفة من رجال الأدب ، من بينهم .. المرحومان الدكتوران : زكى مبارك ، و عبد الوهاب عزام . والدكاترة : عبد الحميد العبادى ، وحسن ابراهيم حسن ، وفريد رفاعى .

وبعد أن تخرج اشتغل مدرسا فى المدرسة التحضيرية اذ كان معلما للانجليزية والترجمة ، وكان مجيدا للفرنسية ، والانجليزية ، وعارفا بمبادىء اللغة الايطالية .

وفى سنة ١٩٢٠ م نقل مدرسا فى مدرسة الاقباط الثانوية بدمنهور وفى سنة ١٩٢٢ م وظف فى وزارة الاوقاف ، وظل فيها حتى يناير سنة ١٩٥٤ م . وكان آخر مناصبه بالوزارة ، منصب سكرتير مجلس الأوقاف الأعلى .

وقد عمل (كامل كيلانى) بالصحافة والفن خلال تلك المدة . فاشتغل رئيسا لنادى التمثيل الحديث سنة ١٩١٨ م ، ورئيسا لتحرير جريدة الرجاء عام ١٩٢٢ م ، ثم سكرتيرا لرابطة الادب العربى من ١٩٢٩ م - ١٩٣٢ م .

« وكامل كيلانى » بطبيعته رجل معتزل : يحب الوحدة ، ويكلف بها ، ويصرفها فى البحث والدراسة ، وكان دءوبا لا يهدأ ولا يتوقف . فقد أصبح عمله هذا ، هواية وغاية .

أصبح روح حياته وأيامه .

انه لايضيع دقيقة واحدة من عمره سدى .

قال عن نفسه : (ماضاع من عمرى شىء قط) كنت أعمل حتى فى يوم المرض : أفكر ، وأتأمل ، وأرسم خطط العمل . كنت أذهب الى جبل المقطم ومعى كتاب - وأنا فى ذلك أومن بالقاعدة التى تقول :

« العلم اذا أعطيته كلك أعطاك بعضه ، واذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئا » .

وظل كيلانى يواصل عمله ، حتى بلغ به الجهد يوما ما ، فتوقف

بصره فجأة مدة اربع سنوات ، ثم رده الله اليه ، وشغفه بالعمل الذى كان رائده الاول ، والهدف الاسمى .

وكان من رايه ان المعركة بين اديبين من شأنها أن تجعل الأدب يفقد اثنين من رجاله ، ولذلك كان يؤثر الصمت حين يهاجمه أحد النقــاد ، وبهذا الصنيع يخسر الأدب رجلا واحدا .

فكان شعاره ، هو : أن يعمل ، ويعمل دائما .

ويتابع الاستاذ الكيلانى سلسلة الحديث عن نفسه ، بالنسبة لتعلقه بالأساطير وشغفه بها ، فيقول : « ان الاسطورة دعامة حياتى » .

ويرجع هذا الى انه ولد فى أحضان جبل المقطم . وكان الابن الرابع عشر لأمه ، ولم يظفر بالحياة غيره ، فنشأ فى جو صحراوى سحرى ، يعبق بالأساطير والاغانى ، فألف منذ طفولته ــ العزلة الباكرة ــ وفلسفته فى هذا انه لايرتبط مع العالم الا فى الضرورة القصوى . وقد كان هــذا مما أتاح له أن يقرأ ويستوعب ويحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من عيون الشعر العربى .

هذا بخلاف الروائع الأدبية والحــكم والأمثال وحصــــيلة غير محدودة من الفكاهات والأقاصيص .

وكامل كيلانى كان طبعه المحايدة . فلم يتعصب لأديب بعينه . ولم يكن يفضل أدبا على أدب ، ولا كاتبا على كاتب آخر ، ولا قصــيدة على قصيدة أخرى . اذ أن : (آية الجمال أنك تعيش مع كل عظيم ، فتراه أشبه بالحسناء التى تنسيك الحسان) .

عاش « كامل كيلانى » اثنين وستين عاما وأشهرا ، حافلة بالعلم والمعرفة .

وكانت وفاته مساء يوم الجمعــة ٩ من أكتوبر ســنة ١٩٥٩ م . وشيعت جنــازته الى المقر الاخــير صبيحة يوم السبت ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

أساتذته :

لو بحثنا شخصية كامل كيلانى نفسانيا نجده رجلا ملهما ، يستمد الهاماته من عالم اللاشعور . ولعل هذا هو سر قوته . ويعتبر هــذا

الالهام هو العنصر الجوهرى الذى تتكون منه شخصيته القوية الساحرة التى تكمن وراء جسمه الضئيل الضعيف .

ولنستمع اليه حينما يشرح العوامل النفسية الفعالة ، ويبين العناصر التى جعلت منه أديبا فنراه يقول عن نفسه :

(كان لى خال ، اسمه (سعد اسماعيل) ، وكان رجلا مكفوف البصر وقد كلفه والدى - حيث لاعمل له - تربيتى ، وكان خالى هذا بحرا فياضا زاخرا بالقصص ، فكان يقص على مسمعى ماعنده من قصص فى اثناء الليل ، مما جعلنى أحب القصص ومطالعتها ، وحفظ الأشعار .

وكان لى حوذى (عربجى) ، نصف أمى ، ونصف فيلسوف . وكان حافظا للقرآن الكريم ، ولكثير من الأحاديث النبوية ، كما كان حافظا لكثير من الحكايات المتعلقة بالسحر والخرافات .

وكان والدى ينصرف الى عمله ، ويترك الحوذى يقص على ، أو يطالع لى ، وقد سمعت منه قصة « سيف بن ذى يزن » فأثرت فى نفسى كثيرا !

ومن المصادفات العجيبة ان والدى كان صديقا لاحد الأثرياء المعروفين . وفى يوم ما ، رآه والدى حزينا ، فسأله عن سبب حزنه ، فأخبره بأنه كان يعول امرأة يونانية أرملة ، ولها بنتان ، وانه سيسافر الى « سويسرا » ولا يدرى ماذا يصنع بهذه الأسرة المسكينة ؟ .

فأبدى والدى استعداده لرعاية هذه الأسرة ، وتولت المرأة تربيتى وكانت بنتاها على ثقافة واسعة . وأول ماسمعته منها : هو « أساطير اليونان » .

وكان هنالك شاعر شعبى من شعراء (الربابة) اسمه (عبده الشاعر) وكان ينشد على ربابته أقاصيص البطولة ، فكنت أذهب للاستماع اليه كل ليلة فى ميدان القلعة فى سوق العصر .

فسماعى لقصص العرب ، وأساطير اليونان ، وحوادث الابطال من شاعر الربابة، وامتلاء أذنى منذ الصغر بكل هذا - كان له تأثير فى اتجاهى الى القصة . وقد أعجبتنى قصة « سيف بن ذى يزن » كثيرا ، وكنت أعقد مقابلات بينها وبين (الالياذة) و (الاوديسية) لهوميروس ، وعز على أن تذهب شخصية « دمر بن سيف بن ذى يزن » هباء بلا تخليد ،

فصنعت قصة « دمر » وجعلت له ابنا سميته « صفوان » . وجعلت هذه القصة فى ثلاثين جزءا ، نشرت منها ــ فيما بعد ــ ثلاثة فقط ، وكان عنوان القصة الذى خطه صديقى الاديب الشاعر الخطاط الاستاذ « سيد ابراهيم » هو (الامير صفوان وقصته بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال) .

والذى حدث ازاء أول تجربة لى فى عالم التأليف ، حينما كنت تلميذا بالابتدائى بمدرسة أم عباس سنة ١٩٠٨ م ــ أننى ذهبت مع صديقى (سيد ابراهيم) الى أحد (الكتبية) . فلما رآنى الناشر استخف بى واحتقرنى ، وعلمنى هذا الا أكثر من اللقاء بالناس ، ولذلك كنت أنشر كثيرا بتوقيع رمزى ، وهو (ك . ك) .

وليس معنى هذا أن القصص كانت كل شىء فى حياتى ، فقد كنت مولعا بالدراسة العلمية فى نواحيها المختلفة ، فكنت أطالع بالعربية والانجليزية والفرنسية .

وكان لوالدى مكتبة حاشدة بالكتب العلمية والرياضية ، لأنه كان رياضيا بارعا .

فعكفت عليها ، وافدت منها كثيرا . ولقد كنت أحفظ وانا تلميذ عشرين الف بيت من الشعر .

وكنت انتهز فرصة العطلة الصيفية لأحضر فى (الأزهر الشريف) مستمعا ومحصلا .

ومن أساتذتى فيه «الشيخ السحرتى» والشيخ «سيد المرصفى».

كما كنت حريصا على ندوات الأدب والشعر والعلم . وأذكر من بينها ندوة الشيخ (مصطفى الحلبى الشامى) الحلوانى التى كنت أحضرها مع (زميلى) الاستاذ (سيد ابراهيم) . وفى هذه الندوة عرفت (المعلقات) .

أما فى أثناء دراستنا بالجامعة القديمة فقد وضعنا لأنفسنا خطة لدراسة الأدب العربى ، والادب الانجليزى ، والفرنسى ، ودراسة الفلسفة والتاريخ الاسلامى .

وفى الوقت نفسه التحقت بمدرسة (دانتى الليجييرى) لدراسة الادب الايطالى .

وكنت أهرب مع « زكى مبارك » الى مدرسة الأزهر الفرنسية وهو الاسم الذى أطلقناه على القسم الليلى الذى انشأته البعثة الفرنسية بحى الأزهر .

قرأ «كامل كيلانى» ، (عنترة) و (سيف بن ذى يزن) و (فيروزشاه) و (حمزة البهلوان) و (الظاهر بيبرس) .

وهى فى مجموعها تبلغ حوالى مائة وسبعين كتابا ، ولكن هـــذا الرصيد الضخم لم يكف القارىء الطلعة ، الذى اندفع يقرأ الاساطير فى الادب الاوربى : (روبنسن كروزو) (وجيلفر) وغيرهما من أساطير الهند واليونان .

فأنشأ بهذه القراءات ــ فى أعماقه ــ منطقة خيالية عجيبة ، ظـل يعيش فيها حتى انفجر حاجزها ، عنـدما بلغ غاية قوته ، على هـذه الصورة الرائعة .

وقد أمده التاريخ بالمادة الخام ، فقد قرأ الى هذه القصص ــ أمهات كتب التاريخ .

وبجانب ذلك فى أثناء دراسته ــ قرأ كتب الادب العربى القديمة ، مثل : (الامالى) و (الكامل) للمبرد و (العقد الفريد) .

مواهبه الادبية

ولد الكاتب الالمعى (كامل كيلانى) أديبا ويعد الحاج (مصطفى الحلبى) (بائع البسبوسة) ــ الذى كان يقف أمام الحارة ، التى كان يقطنها كامل كيلانى ــ أول من أوحى اليه ، وكون ملكته الادبية .

وكان هذا البائع أديبا يحفظ عن ظهر قلب قصائد العالم الصوفى (عبد الغنى النابلسى) والشيخ (محمود الملاح) والشـاعر الذى كان يغنى على (الربابة) فى القهوة المواجهة لحارته ، و (الاسطى) محمد الشيخ (العربجى) . وكانت بداية (كامل كيلانى) لحياته الادبية بأسلوبه الخاص ونظرته للحياة مما يوحى الينا بأنه سيأخذ مكانه الطبيعى بين صفوف الادباء والمؤرخين . بل ان اتجـاهه التـاريخى كان غالبا فى البداية ، على اتجاهه الأدبى ، تشهد بذلك مؤلفاته : (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الاعيان) .

ثم ابرز اتجاهه الى الشعر . فهو شاعر يخفى آثاره الشعرية ، ويحتفظ بها لنفسه .

ثم بدأ يراجع (ابن زيدون) و (ابن الرومى) .

ثم اتصل بالأدب الأندلسى ، وترجم كتاب (نظرات فى التاريخ الاسلامى) لدوزى ، واتجه بعد ذلك بشغف الى (المعرى) . وعاشر طويلا معه ، وأخرج « رسالة الغفران » .

شغف الكيلانى بشخصيتين فى الادب العربى ، وكلف بهما كلفا عجيبا هما « المعرى » و « جحا » .

وهو يقول فى ذلك ، انهما يجمعان فى نفسه أهواءه وآراءه ، وأصداء نفسه . فهو جماع بين (المعرى) : العابس المتجهم و (جحا) الباسم الساخر .

وهو ايضا قد ضاق بما ادلى به الادب الانجليزى من التقدير لشخصية (نصر الدين خوجة) : (جمال التركى) . فى حين أن (جحا العربى) (أبا الغصن دجين بن ثابت) أقدم منه تاريخا . وأغلب مانسب الى (نصر الدين) انما هو فى الحق من آثار (أبى الغصن) .

وجحا (أبو الغصن) يمثل الشخصية المصرية المرحة الفكهة ، وتقوم فلسفة فكاهته على قاعدة : (عامل الناس بما اختاروا أن يعاملوك به) .

أما (أبو العلاء) فيختلف ، وميزته عند (الكيلانى) أنه يعبر عن كل أفكاره ، فهو يرى نفسه شبيها به .

ومجمل القول ان (كامل كيلانى) كان مغرما بالادب منذ حياته الأولى . ويكفى فى مثل هذه الحال أن يقرأ كتابا غير الكتب المقررة عليه ، ويحاول أن يفهم مقالا فى صحيفة ، فانه بعد ذلك يحس فى نفسه الرغبة فى قراءة ماهو غير مدرسى . وخطوة بعد خطوة يرى نفسه خيرا مما كان عليه ، وربما رأى نفسه مجدا عن كثير من لداته . .

وعندما يصل الى مرتبة الاحساس بالتفوق يكون قادرا على أن يحرق أصابعه ، وربما أحرق ثيابه ، فى سبيل أن يتعلم كيف يكتب ، مثل ما يكتب هؤلاء الذين قرأ لهم هاتيك النفائس !

وأهم حادث أثر فى مجرى حياته انما هو أن طائفة من اصدقائه ماتوا سنة ١٩١٤ م بالهيضة ، فقدهم فجاة ، وكان بعضهم اقوى منه صحة، فأحس بأن القدر قد تخطاه وأن مابقى من عمره كأنما هو زيادة.

وسئل ذات مرة : لو بقى من عمـــرك يوم فماذا تفعل ؟ فأجاب الكيلانى قائلا : اكمل آخر ملزمة من كتابى .

واصيب مرة بأزمة قلبية ، فلم يحزنه خلالها الا انه لم يقرأ كتاب «برودكستر» وهو من أبعد الكتب ــ التى قرأها ــ أثرا فى حيــاته ، وقد توفر على قراءته بعد أن أبل من أزمته حتى لا يندم عليه ، لو ألمت به أزمة أخرى .

هذا الشـاعر ، هذا الرجــل الذى عاش فى الاســاطير ، والقصص والرؤى ، بين (الف ليلة) وبين (سيف بن ذى يزن) الذى يحبه كثيرا : هل له قلب ؟

هل أحب ؟

وكيف كان اثر الحب فى ادبه وحياته ؟

الحقيقة أن قصة قلب (الكيــلانى) لم تكتب على الصــورة التى يحتفظ بها فى أعماقه !

انه كان لايريد أن يطلع احدا على هذا السر فى هذه السن ، ولكن قصة (سنية) « فى مجموعته القصصية ــ مختار القصص» تعطى صورة قريبة (لفرتر) الذى أوشك أن ينتج فعلا ، لولا خاطر شعورى كان سببا فى انقاذه وهو : انه لم يودع فراشه الذى أمضى حياته فى أحضانه ، وهو ودود ، ألوف بالطبع !

هــذا الحب دفعــه الى أن يحفظ ديوان (العبــاس بن الاحنف) ويسترجعه . وتتراءى له ــ فى خلال شـــطراته ــ أحــلامه وآلامــه ، ومشـاعره .

لقد أحب العباس بن الاحنف حبا صادقا نقيــا . وكذلك أحب الكيلانى .

وذكر الكيلانى انه منذ طفولته الى شبابه وشيخوخته لم يشغله شاغل عن الفن والادب والاطلاع والتفكير .

ثم قال : علينا أن نذكر أن النهار طويل ، والليل أطول . ومثلى لايضيع جزءا من وقته فى غير طائل .

ومتعتى هى القراءة ، والقراءة الموصولة التى تؤدى بطبيعة الحال الى الكتابة الموصولة ، وروافد الثقافة متعددة ، وينابيع المعرفة كثيرة .

فانا أرافق ــ منذ عهد بعيد ــ أمثال «شكسبير» و «موليير» و «المعرى» و «دانتى» و «هوجو» و «موسه» و «كولريدج» و «بايرون» و «شيلى» و «ديكنز» و «ماكولى» وغيرهم .

ومن هذه المرافقة أفدت ، وثارت فى ذهنى وخاطرى المواد المختلفة التى تشير اليها .

اتجاهه القصصى :

. الواقع أن الاتجاه القصصى عند (كامل الكيلانى) كان نتيجة طبيعية لطابع شخصيته ومعالم نفسه ، ولو أنه لم يكتب القصة لعق فطرته ، ولظل فى عداد « الأدباء » ولم يقفز الى صفوف « البواد » .

الحقيقة أن كل أثر من آثار « كامل كيلانى » ــ فى مستهل حياته الادبية ــ يعطينا خيطا من خيوط شخصيته القصصية . كما جاءت ــ بعد ذلك ــ قوية خلاقة ــ عندما أبدع هذا اللون الجديد فى الأدب العربى ، وهو « قصص الأطفال » .

فان التاريخ ، والشعر ، والأدب ــ كلها نوافذ على الفن القصصى ؛ واعداد له . وهو « النواة » التى تخلق الرواية .

واذا عدنا الى الوراء ، لحياة « كامل كيلانى » وجدناها قد رسمت وفق أسلوب قصصى ، فقد تفتحت روحه على الاسطورة العربية ، فاندفع يقرأ كل أسطورة ، فى كل أدب .

واذا أردنا أن نبحث عن الحافز الذى دفعه الى السير فى هذا الاتجاه الخاص بالطفل ، وجدناه ذا فرعين :

أولهما يتصل بشعور « الكيلانى » وهو طفل حينما كان يرى قصص الأطفال الأجنبية آية من آيات الروعة والجمال ، والقصص العربية فى الغاية من المسخ والتشويه ، حتى لقد قال لزميله وصديقه الاستاذ « سيد ابراهيم » حينما كانا طفلين : « ان هذه الكتب العربية تبغضنا فى القراءة » .

فقال له : « ألف خيرا منها ، ان كنت فاعلا » .

فظل هذا الشعور يلازمه منذ طفولته المبكرة ، وهو يقرأ ويكثر من القراءة فيختزن كل موقف رائع ، وكل قصة طريفة يعجبانه ، لأنهما يعجبان الاطفال الذين هم فى سنه حتى جاء اليوم الموعود ، فظهرت أول

قصـــة من قصص الأطفال سنة ١٩٢٧ ، وهى قصـــة « السندباد البحرى » .

اما الفرع الآخر ، فقد يكون الحافز لاتجاهه فى هذا السبيل :أنه قص على ابنته قصة قرآه ــ بعد أيام ــ يقصها على الخادم بحــذافيرها محافظا على أدق الاجزاء ، وزادت دهشته حينما علم أنه قصها مرات على جميع لداته ، لم يحذف منها شيئا .

فأدرك ــ حين ذاك ــ أن هذه القصة تشـــوق جميع الأطفــال ، واصبح أمام أمرين :

اما أن يقتصر وقته على تربية أولاده وتثقيفهم بهذا الضرب من القصـــص ، واما أن ينشره ويعممه ، ويربى أولاده مع الجمهرة ، وآثر الأخيرة .

وتوالت قصصه للأطفال من ذلك الحين ، حتى بلغت أكثــر من مائتى قصة .

ونحن لذا ما انتقلنا من تبيين الحواجز الى استجلاء الاسس التى قامت عليها هذه القصص عنده ــ وجدناها ثلاثة :

١ ــ الجانب اللغوى .

٢ ــ الجانب المعنوى الخلقى .

٣ ــ الجانب الموضوعى .

اما الجانب اللغوى فيرى الاستاذ « الـكيلانى » أن كتب المطالعة العربية كلها ــ على تفاوتها ــ لا تصل التلميذ بتراثه الأدبى ، ويرى أنه ينبغى ان تكون كتب المطالعة قنطرة ، أو طريقـــا معبدا ميسرا ــ مهما يطل ــ يصل الطفل منذ الروضة (بالمتنبى) و (أبى العلاء) و (أبى تمام) ، بل بشعراء المعلقات !

وطريقته فى استخدام اللغة هى التكرار والاعادة مع الشكل الكامل لكل حروف الكلمة ، فهو يكرر الكلمة الجــديدة فى القصص نحو خمس وعشرين مرة ، حتى يحس الطفل أنه فهمها فهما دقيقا جيا فى الجمــلة نفسها ، وحتى تتثبت فى نفسه ، وتصبح جــزءا من ثروته اللغوية ، يستعملها فى حديثه وكتابته .

أما العناية بالشكل الكامل فالمقصـــود منها تجنيب الطفل اللفظ الخاطىء ، لأن الطفل بحافظته القوية ، اذا حفظ الكلمة خطأ ، لزمته طول

خيانته ، فيعسر رده الى الصواب من ناحية ، ويلتصق الخطأ بكرامته ، من ناحية أخرى . فاذا رد الى الصواب حز فى نفسه ، وقد يغضبه ويثور لكرامته ، ويلعن اللغة وينفر منها ، فالانسان عدو ما يجهل .

وأما الجانب المعنوى الخلقى : فان حرص (الكيلانى) على تجنيب الطفل الخطأ فيه لا يقل عن حرصه على تجنيبه الخطأ اللفظى ، لأن الطفل اذا رأى انتصار الشر مرة ضعف ايمانه بالحياة ، وتزلزلت عقيدته بالخير .

وأما الجانب الموضوعى : فان (الكيلانى) لم يقتصر على مجال دون آخر ، ولا على أدب أمة دون غيرها ، وانما استقى من كل لون ، واغترف من كل أدب ، مالا يجوز الجهل به ، وهو يسمى هذه القصص (الفيتامينات الفكرية) ، فلا بد أن تغذى بها عقول الناشئة من ضروب شتى وبمقادير متفاوتة .

ونحن اذا ما عرضنا قصصه وجدنا فيها القصص الأسطورية ، والقصص التاريخية ، والقصص الجغرافية ، والقصص العالمية .

ومن ذلك يتضح لنا أن الأستاذ (كامل كيلانى) لم يقصر همه على تنمية الخيال وحده ، ولا تنمية الثروة اللغوية وحدها ، وانما قصد الى هذين ، والى مقاصد أخرى ، قد يكون منها امداد الطفل بالمعلومات العلمية ، والتاريخية ، والجغرافية ، وتعويده التفكير العلمى المنظم ، ووصله بركب الثقافة والحضارة من حوله فى اطار قصصى يشوق ، وأسلوب سهل يستهوى ويروق .

وتعهد الكيلانى بالطفولة وتربية الناشئة ، لأن الطفولة ضعف والعلم رفق . وأخلق أن يمر بها رفيقا ، كمر النسيم بالأزاهير ، وأخلق بالعلم الحصيف أن يترفق بهم ، ويتملق تلك العواطف .

على أن للطفولة أفئدة حاكية وضاءة ، كصحيفة السماء ، فحذار أن تخطو فى تلك الأفئدة ـ بل الصحائف ـ الا بأقلام لبقة ، بتصوير الملامح ، فان للطفولة قلوبا حساسة حافظة كأنها « ورق المصور الحساس » .

وفى مذهب التربية الحديثة ، أن يؤخذ الوليد فى تعليمه الجدى ، بالشهى الملهى من فكه الحديث ومشوقه ، فى مزاج من النقاش ، والتصوير الكلى ، ليلتقى جد العلم المجتهد ببشاشة الجمال والفن الساحر ، ترتاض به نفسه الكليلة .

منهاجه الأدبي

طريقة الكتابة عند الكيلاني :

نراه يحدثنا عن ذلك فيقول : ليس لى وقت خاص أكتب فيه ، ولا مكان خاص ، ولا طريقة خاصة .

على أن خير الاوقات التى تحلو لى فيهـــا الكتابة هى الاوقات التى أشعر فيهـــا بأن صحتى أحسن ، وان الضعف الجسمانى – الذى يكاد يلازمنى – قد حل مكانه شيء من النشاط والصحة .

وكثيرا ما يحلو لى أن أكتب ليلا أو سحرا ، على شريطة أن أضطر الى الكتابة اضطرارا .

وربما حسبت – لكثر ما أكتب – اننى مشغوف بالكتابة ، والحقيقة اننى من أزهد الناس فى الكتابة ، وان كان شغفى بالقراءة قد أربى على كل حد .

أما الكتابة ، فانى أهرب منها هروبا ، ولا يضطرنى اليها الا تقييدى بمواعيدها الاجبارية ، وتقديرى التبعة المترتبة على التوانى فيها .

ولست أتعب فى كتابة الموضوع ، وان كنت أتعب فى التفكير فيه قبل كتابته .

وربما لازمتنى الفكرة أشهرا ان لم أقل سنين وأنا لا أجد الفرصة لقيدها كتابة ، ولست أكتب الا فى آخر الوقت .

وربما شغلتنى أعمالى طوال يومى ، فأعود الى البيت فى التاسعة أو العاشرة أحيانا ، ثم أبدأ فى الكتابة حتى أتم الموضوع الذى بدأت فيه ، ولو مضى فى ذلك الليل كله .

وليس يعوقنى عن الكتابة أن يتكلم بجوارى ألف شخص ، ولكن الصياح أو الصراخ هو الذى يزعجنى ، ويقطع على تفكيرى ، ويهيج أعصابى الى أقصى حد .

وليس يعوقنى أن أكون جالسا بين أولادى وزوجى فى أثناء الكتابة . بل قد يحبب الى ذلك وينشطنى تنشيطا .

وربما أنصت الى حوارهم اللذيذ فى بعض الفترات التى أستريح فيها من الكتابة ، وقد أقص عليهم قصة قصيرة ، أو أشاركهم فى حوارهم ، ثم أعود الى الكتابة .

وقد عرفوا اننى لا أغضب الا اذا طلبوا الى أن أتكلم ، أو أبدى رأيى فيما يريدون فى أثناء الكتابة ٠

وهذه عادتى فى أثناء القراءة أيضا ٠ وقد ألفوا منى ذلك ، فأصبحوا يتكلمون فيما شاءوا من الموضوعات ، دون أن يوجهوا الى سؤالا واحدا» ٠

وكان موقف الاستاذ « الكيلانى » ظاهرا ، حينما لعب الاستعمار دوره ، اذ أراد انتشار العامية للقضاء على اللغة الفصحى ، وفرض لغته على اللغـة القومية ليتخذها النـــاس لغة لهم ، ودستورا فى المخـــاطبات والمراسلات ، وشئون البلاد ٠ ولكن فشل الاستعمار وأذنابه ، اذ ازدهرت اللغـــة العربية ، وذلك بتقوية الشعور القومى ، بفضل المجـــاهدين المخلصين ٠

ونرى الكيلانى يحدثنا عن موقفه الحاسم فى ذلك منذ ربـع قرن ابان المعركة اللغوية ، فيقول :

« أنا أحارب اللغة العامية التى يدعون اليها » ٠

أحاربها بكل ما أستطيع ٠ ولكن أسلوبى فى محاربتها ، كما قلت فى غير مرة ، هو (حرب البناء الذى يصنع التاريخ) ٠

وأنا أقول لهؤلاء الذين يريدون الكتابة بالعـامية : أى عامية تكتب بها . عامية مصر ، أو العراق ، أو سورية ، أو الحجاز ، أوعامية القاهرة أو الاسكندرية أو أسيوط أو دمياط ؟

وأنا أقدم لكم نصا كتب باللغة العامية أيام (محمد على) ٠ وهذا النص عبارة عن خطاب يطلب فيه مرسله استدعاء (البوليس) لفض معركة بين شابين ، أحدهما اسمه (شادى) والآخر اسمه (مهران) ٠ وهذا هو النص :

(حيص ليص ، ولد « شادى اتعارك مع ولد «مهران» ليلة البارحة جبل طلوع الشمس بدنشة ، وعمل موزجلاية كبيرة ، وشده وزعطه ، وشاله ومعطه ، وتناول دنشة حـرابة كبيرة ، وضربه فى فـردة عينه البحرية !)

ولقد وقفت بشدة أمام (محمود تيمور) ، عندما كان يكتب الحوار فى بعض قصصه بالعامية ، قلت له : اذا أردت أن يكون أدبك محليا فاكتب بالعامية ، واذا أردت لادبك الخلود فاكتب بالعربية ! -

وأصبح (تيمور) الآن من الد أعداء العامية ·

ويظهر مذهب كيلانى واضحا حينما رد على الذين يقولون ان كتابة الحوار القصصى باللغة العربية العـــامية لا يضعف الادب ، ولا يصبغه بصبغة محلية ضيقة ، فقال :

« ان الكتابة وضعت لكي يفهمها الناس ، وكلما استطاع الكاتب أن يفهم عددا أكثر كان نجاحه أكبر .

والامم العربية مختلفة اللهجات ، ولكن تجمعها ، وتوحد بينها اللغة الفصحى الواحدة ، وهي اللغة العربية · والصفوة المثقفة لا تفهم بغير الفصحى ·

ففى أى سبيل نضيع هذه الامبراطورية الفكرية · وبأى ثمن ؟

لا شك أن حوار القصص يجب أن يكون باللغة العربية الفصحى ، والذين يعمدون الى جعل الحوار باللغة العـــامية الدارجة والمالوفة لكل شعب لا يفعلون ذلك الا عن ضعف ، وعدم اتقان للغة · فلو أنهم كانوا متمكنين من لغتهم ما جاء حوارهم عاميا مبتذلا » ·

ولقد عنى الكيلانى بتنشئة الاطفال ، لانه يعتقد أن طالب الاصلاح يجب أن يعبد الطريق . وأول ما يعنى به المهندس انما هو متانة الاساس ، فالطفل هو أساس الامة وموضع أمل الجميع · فالعناية به عناية بالامة جميعها ·

ولقد أحس (المربى الكبير) أن الطفل الذى يعيش فى قصصه ، ويرى الخير دائما ينتصر ، ثم يكبر ويدخل معترك الحياة ـ يجدها كلها صراعا وشرا ، فيصاب بصدمة يقف معها مشلولا أمام الخديعة التى ظل يعيش فيها كل طفولته وصباه ·

ولهذا كان (منشىء الجيل) يضع الشر دائما بجوار الخير ، ويصور له الصراع العنيف ، الذى يدور بينهما حتى ليكاد يتوقع أن ينتصر الشر فى لحظة خاطفة ، وتنتهى القصة · ولكن الخير ينتصر فى النهاية بكل وسائل الذكاء والمكر والحيلة ·

وكانت فلسفته فى ذلك ــ ليغرس فى نفوس (الاطفـــال ــ حقيقة الحيـــاة الواقعة · وهى أن النصر للخيرين الاذكياء ، والهزيمة للاشرار الأغبياء !

الفصل الثاني

رحلاته إلى العالم العربي

لقد عبر « كامل كيلانى » عن رحلته فى العالم العربى بأسلوب فياض ، يطرب منه القارىء ، لما فيه من سلامة فى اللفظ ورشاقة فى المعنى. فهو يصف البلاد العربية عندما زارها ، وصفا بديعا للأيام التى قضاها فى : فلسطين ، ولبنان ، وسورية. ففى كتابه (مذكرات الاقطار الشقيقة) الذى ألفه سنة ١٩٣٤م بعد عودته من الاقطار الشقيقة يقول :

(هى أيام بهيجة قضيتها فى فلسطين ولبنان وسورية ، تتضاءل بهجة الاعياد والمواسم اذا قيست الى بهجتها . وقد مرت ـ على طولها ـ قصيرة كما تمر الاحلام الشهية ، تاركة ـ وراءها ـ أعذب الذكريات ، وأبدع الامانى .

هى أيام بهيجة ، نعمت فيها بأحاديث أبنـــاء العروبة وشبابها وشيوخها ، ورأيت فى أحلامهم وآمالهم وآلامهم صورا صادقة من أحلامى وآلامى ، فذكرت قول ابن الرومى :

مواقيت أهـــواء توافت على هوى
فلو أرسلت كالنيل لم تعد موقعـا
اذا ما دعا منا خليل خليله
بأفديك ؟ لبـــاه مجيبا ، فأسمعا

وليست هذه الذكريات العطرة الا صدى لتلك الايام الساحرة ، التى قضيتها فى تلك البلاد الفاتنة ، وسعدت فيها بلقاء زعماء الفكر ، وقادة الرأى ، فى هذه الاقطار المحبوبة .

فالى أبناء هذه البلاد : فتيتها وكهولها وشيوخها ، والى كل نصير للعروبة والعرب ، والى كل من يعمل على تقوية الاواصر وتوثيق الصلات بين هذه الاقطار المتآخية الشقيقة ـ أقدم هذه الذكريات . وليس لى فى تقديمها من فضل ، وانما مثلنا ، كما يقول القائل :

كالبحر يمطره السـحاب ، وماله
فضـل عليه ، لانه من مائه

ثم يواصل حديثه ليصف لنا شعوره فى تلك الزيارة ، فيقول :

ان المصرى ليحار أمام ما يلقاه من الحفاوة والتكريم فى تلك البلاد

المحبوبة ، ثم تشتد حيرته ويقوى شعوره بالعجزعن مقابلة أهليها احسانا باحسان . فتثور نفسه أمام هذا العجز الفاضح ، ويرى أنه مهما بذل من ثناء وشكر ، فهو مقصر شديد التقصير .

ثم نراه يتابع حديثه أيضا فيقول :

وليست هذه الحفاوة ـ فيما رأيت ـ مقصـــورة على مصرى دون مصرى ، لعلمه أو فضله أو أدبه ، بل هى حفاوة عامة ، يختصون بها كل مصرى يلقونه فى بلادهم الساحرة الأخاذة ، فهم يتخذون من كل أديب مصرى رمزا للادب المصرى ، ويكرمون فى شخصه الضعيف مصر المحبوبة وأدبها وتفكيرها .

ولقد كان للنعمان بن المنذر يوم نعيم فى كل عام . وكان يسعد به أول من يصادفه فى ذلك اليوم من الناس .

وقد آلى اخواننا اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون والعراقيون على أنفسهم ليجعلن أيامهم كلها ـ كيوم النعمان ـ أيام اسعاد . وأقسموا ليغرقن باحسانهم وأفضالهم كل مصرى يعتز بشرقيته ، ويفخر بعروبته .

ثم يقول :

لقد زرت الاقطار الشقيقة مرتين ، فى عامين متعاقبين ، فما ازددت بها الا فتنة وهياما ، ثم يتابع الحديث بقوله :

وما أكذب القارىء حين أقول له : اننى مازلت مأخوذا بسحر مارأيت وسمعت . ومازلت حالما ، وما أحسبنى أشفى من سحر هذه البلاد ، أو أتنبه من هذا الحلم اللذيذ الرائع ، الا اذا غمرنى سحرها ، عودا على بدء .

القومية العربية ، وعواملها

لقد دعا كامل كيلانى الى وحدة الشمل بين العربى فى القاهرة وأخيه فى لبنان وسورية والعراق وفلسطين . بل فى سائر البلاد ، من الخليج الى المحيط ، اذ أنهم قد اتفقوا فى الجنس والتاريخ واللغة ، تلك العناصر التى تعتبر الدعائم الكبرى للوحدة العربية الشاملة .

وكانت نظرة كامل كيلانى الى اللغة نظرة اكبار واجلال ، لانهـا لغة البلاد العربية ، وبها نزل القرآن الكريم دستور السماء ، وأنه متى تمسك

العرب بلغتهم عز جانبهم ، وجمع شملهم ، وشد من أزرهم ، وأصبحت لهم كلمة عالية ، وأصوات مدوية يعربون فيها عن آمالهم وأحلامهم ، حتى يعود لهم مجدهم الغابر التليد ٠

وهذه النظرة الدقيقة نلمسهـــا منه حينما كتب عن وحدة اللغة ، عندما زار البلاد العربية ، ولمس فى أهلها : الشجاعة ، والنبالة ، ومكارم الاخلاق ، وحسن العشرة ٠ مبينا غبطته وفرحته وسروره بهذا اللقاء ٠ فتكلم عن اللغة باعتبارها العامل الاساسى لبناء الوحدة ٠

القومية العربية ووحدة اللغة

قال كامل كيلانى :

لقد كان يملأ نفسى شعور عجيب، حيثما حللت ، وكيفما أدرت لحاظى فى تلك البلاد ، فقد كان يتمثل لى أننى سائر فى وطنى ، وانني أرى فيمن يكتنفنى من الاصدقاء ، مواطنين أعزاء واخوة أشقاء ٠

وكانت نفسى تطرب لكل عمران ألقاه فى طريقى ، وأشعر انه اصلاح فى وطنى الذى نشأت فوق أرضه وتحت سمائه ، وأخلصت له المحبــة والولاء ٠

ترى : من أين نشأ هذا الشعور ؟ وما مصدر هذا الحرص الشديد على كل خير يصيب هـــذه الاقطار الحبيبـــة الى نفس كل شرقى مخلص لشرقيته ، معتز بعروبته ؟ ولماذا يهتم المصريون ببناء هذه البلاد ويشركونهم فى أفراحهم وأتراحهم على السواء ؟

ولماذا يغمرنا أهل تلك الأقطار بحبهـم واخلاصهم ، ويغرقوننـــا بأفعالهم واحسانهم ؟ وما مبعث هذا الشعور ؟

فضل ذلك كله عائد الى اللغة العربية التى ربطت أواصر هذه البلاد، ووحدت ثقافتها وآدابها وأمانيها وأحلامها ، فأصبحنا بفضلها نعجب جميعا بالمتنبى ، وابن زيدون ، والمعرى ، وابن الرومى ، وأبى نواس ، والجاحظ، وعبد الحميــد ، وابن المقفــع ، ومن اليهم من أفذاذ الشــعراء ، وفحــول الكتاب .

وأصبحنـــا نرى فى كل فخر ينسب الى هؤلاء الأفذاذ وأضرابهم ، فخرا تالدا لنا ، ومجدا باقيا ، نتباهى به ، مرفوعى الرءوس ، موفورى الكرامة ٠

وقد أصبح مرتاد هذه الأقطار بفضل هذه اللغة الجليلة لا يكاد يسير فى أى مكان منها خطوة الا تمثل له فيها موقف تاريخى مجيد ،

أو حوار أدبى رائع ، أو طرفة بيانه ساحرة . أو قصة خيالية مهجبة : فيطرب ملء نفسه .

وما زلت الى اليوم – على بعد الشقة – يتمثل لى المنظر الأخاذ ، كلما قرأت هذين البيتين :

أنا والله هـــالك آيس من سلامتى
أو أرى القـامة التى قد أقامت قيامتى !

نهضة الشرق

ثم تكلم كامل كيلانى عن نهضة الشرق مبشرا بالوحدة ، فقال :

ان نهضة الشرق واعداد وسائلها وتهيئة أسبابها وتذليل العقبات التى تعترضها – لهى أكبر مايشغل أساطين هذه البلاد الذين آلوا على أنفسهم ليعزن الشرق بعد اذلال ، وليرفعن أعلام النهضة فى بلادهم عالية خفاقة ، وليبذلن جهود الجبابرة فى سبيل انهاض الشرق من كبوته ، واقالته من عثاره وكلهم يقول :

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وليس بين الانسان وادراك طلبته ، الا أن يريد ، ومتى وجدت الارادة بعد ارادة الله ، فقد وجدت الوسيلة .

لقد عانى الشرق من ضروب الاعنات والخمول وأثانين الغفـلة ماعانى ، حتى كاد داؤه يصبح عضالا على المصلحين . ولكن لكل بداية نهاية ، وبعد الليل النهار ، وزمهرير الشتاء يعقبه صفاء الربيع ، وحرارة القيظ فى الصيف يعقبها اعتدال الخريف ، وما أصدق المثل القائل :

« كل مالم يقتلك ، فهو ينفعك » .

لقد استيقظت الأمم الشرقية من رقاد طويل ، وأصبحت الوحدة الفكرية مطلب الجميع وأنشودة الجميع وغاية الجميع ، فما أكاد أشهد حفلة مدرسية أو اجتماعا خاصا أو عاما الا سمعت فيـه من الاناشيد والخطب فى تمجيد العروبة وتوثيق أواصرها ما يملأ النفس ثقة ويقينا بدنو فجر هذه الليلة الطويلة المظلمة .

ونرجو أن يمتد بنا الاجل ، فنشهد مغتبطين فجر هذه الليلة .

متى يطلع هذا الفجر ؟

ذلك مانرقبه من زعماء هذه البلاد الشقيقة ، وشبابها ، وصحفييها وحاملى ألوية النهضة فيها .

الفصل الثالث

أعماله

بأعمـــال « الكيلانى » المتواصلة ، سجل له التاريخ فى صفحاته البيض النصع أجل الآثار ، اذ كتب مصارع الخلفاء ، ومصارع الاعيان ، وحقق رســـالة الغفران ، وشرح ديوان ابن الرومى ، وترجـــم الأدب الاندلسى ، ونظرات فى تاريخ الاسلام ، وروائع من قصص الغرب ، وفن الكتابة ، وموازين النقد الأدبى ، وتناول الكتابة فى الرحلات بعنوان : (ذكريات الأقطار الشقيقة) ٠

ثم التفت الى فن (أدب الاطفال) فكان رائد قصة الطفل من أول تعليمه الابتدائى الى الدراسة الجامعية فى حلقات متوالية تناسب سن الناشىء وتدرجها ٠

تحقيق المفاهيم الادبية

١ ـ كامل كيلانى مع أبى العلاء المعرى :

(كامل كيلانى) كتاب ضخم يضم بين دفتيه كنوزا حية من الآداب العربية والغربية ٠ وخصيصته فى هذا أنه كالنحل الذى يحوم حـول الزهرات ويمتصها ويتمثلها ، ثم يخرجها للناس أدبا ، فيه شفاء للناس ٠

فهو لا يزال يقرب الى النـــاس كنوز هــذه الآداب المطمورة ، وراء غموض العباقرة ، فى ديباجة صافية ، يفهمها القارىء العادى ، ويرضاها الاديب ٠

وصداقة (الكيلانى) لأدباء العربية ـفى عصورها المختلفةـ صداقة وثيقة ، ولكن هذه الصداقة ترتفع الى درجة القرابة بينه ، وبين شعراء العربية : أبى تمام ، وابن الرومى ، وأبى العلاء ٠

ولعل «كاملا» هو الكاتب الوحيد الذى تستطيع أن تنسق مؤلفاته فى ثبت مع خطوات الانسان فى مراحل حيـــاته : فتلك (مكتبة الطفـــل) وتلك (مكتبة الشباب) ، وتلك (مكتبة الاديب) ٠

ولقد عنى كامل كيلانى بأبى العلاء المعرى عناية كبيرة يدل على ذلك مايلى :

٢ ـ أبو العلاء المعرى فى لزومياته

أبو العلاء رجل سوداوى المزاج ممعن فى السخط على الحياة ، بالغ فى سخطه وبرمه مدى لايشركه فيه الا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين ٠

وهو مطلع واسع الاطلاع على آداب أكثر الامم التى نقلت آدابها الى العربية ، وعالم واع بأخبارها ، صادق حين يقول :

مامر فى هذه الدنيا بنو زمن الا وعندى من أخبارهم طرف

وهو مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة ، والرواية الواسعة لآدابهم المتباينة ، ممحص فطن خبير بتمييز الاخبار ، دقيق فى نقد زائف القول من صحيحه ، وأبو العلاء ، مفكر ، عميق التفكير ، ملهم المعنى ، قوى الحجة عالم من أساطين اللغة ، المشهود لهم بالسبق والتفوق .

وهو الى ذلك ، شاعر (فنان) ، عريق فى الفن ، عارف بروائعه ، خبير بأسرار الجمال ، ومواطن الجلال ، وهو حر الفكر ، واسع الخيال ، فياض المعانى ، مشرق الديباجة ، لايعوقه عن بلوغ غايته شأو ، ولا يقف فى سبيله حاجز ٠

هذه الميزات الباهرة من سمات شعر أبى العلاء ـ الحافل بروائع الفن والفلسفة ـ حين تقرأ كتاب (اللزوميات) ـ تطالعك كل صفحة منه بما يزيدك اقناعا بتلك الميزات العالية ، التى أفردت أبا العلاء ، فأحلته أسمى مكان بين شعراء العربية جميعا كما يرى بعض الادباء ، وتعاونت على تكوين شخصيته الجذابة ، فجعلته من بين جبابرة الفكر وأساطين الفن المبرزين .

وأى روض من رياض الفكر ، أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الروض الفكرى البهيج ، الذى تتحلى به كل صفحة من صفحات (اللزوميات) اذ تقرؤها فتطالع فيها سفرا من أسفار الحياة حافلا بأسمى وأروع ما يبدعه العقل الانسانى ، وتتمثل فيه الخوالج النفسية واضحة جلية ، لالبس فيها ولا ابهام ؟

اقرأ كل صفحة من صفحات الكتاب بروية وأناة ٠٠ وأنا الزعيم لك بأنك لن تجد الا ماحدثتك عنه من الروعة والجلال ، فاذا حال دون امتاعك به حكمة غريبة عنك ، أو لفظة تنبو عنها أذناك ـ فحذار أن تعجل

بالحكم على الرجل ، قبل ان تتثبت من وجهها الصحيح ، فليس هذا ذنبه وليس من العدل أن يؤخذ بتبعته ، وانما اثم ذلك عائد الى تسرعنا فى الحكم ، أو قلة محصولنا اللغوى ، أو عدم المامنا بقسط كاف من تاريخ الامم العربية الاخرى ، التى أثرت فى تاريخها وفى أدبها معا ، أو قصورنا فى درس جغرافية تلك البلاد .

وليس على أبى العلاء اثم اذا عثرت كذلك فى شعره على كلمة غريبة وتبادرت الى ذهنك كلمة حسبتها أليق منها وابلغ فى أداء المعنى ، فمضيت فى حكمك لا تلوى على أحد أو على شىء .

نعم ، فان الرجل دقيق ، يعنى مايقول، وليس مغرورا يولع بالبهرج ولا منافقا يكذبك نفسه ، ولا قليل البضاعة يزجيها عليك . ولكنه رجل واسع الفكر ، بعيد المرمى . وليس أجدر بالرواية والاناة من قارىء الادب العلائى .

فاذا وقع بصرك على مثل قوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتـه	فقير معرى أو أمـير مـدوج
وقد يرزق المجـدود أقوات أمة	ويحرم قوتا واحـد وهو أحوج

فتبادر الى ذهنك أن كلمة (مدوج) ثقيلة على السـمع ، وان التزمت والاغراب هما السر فى التجائه اليها ، وانه كان جديرا به أن يقول بدلها (متوج) ، وما أليق هذه الصفة بالامير ! وما أخفها على السمع ، والطف مدخلها فى القلب ! فتريث قليلا ، وانظر الى المعنى ــ بعد أن فتنك بهرج اللفظ ــ وخبرنى بعد ذلك : « أيقابل عرى الفقير تاج الامير ؟ وقل لى بربك : كم تفقد تلك الصورة الشعرية من الجمال اذا وضع هذا اللفظ بدل ذلك ؟

اذن ، فقد أراد أبو العلاء اللفظة الاولى ، وقصد اليها قصدا ، ولو كان يتكلم نثرا ، لأتى بها ، ولم يرض بديلا . وما أروع تلك الصـورة الشعرية الجميلة التى تتمثلهـا فى هـذا البيت الدقيق ، اذ ترى الشتاء زاحفا بقره ومطره وزمهريره ، وترى فقيرا بائسا يستقبل هذا الفصـل القاسى عاريا ، لايجد مايدفئه أو يقيه غائلة البرد ، ثم ترى ــ الى جانبه ــ أميرا متدثرا بلحاف فوقه لحاف ، لا يكاد يشعر بألم البرد القارص أو يحس زمهريره .

وترى فى البيت الآخر مجدودا ، تكدست أمامه أقوات أمة بأسرهـا على حين تجد الى جانبه مسكينا قد حرم قوت يومه .

حسبنا هذا المثل من أمثلة عدة ، يفيدنا استقصاؤها ، ولا يتسع الوقت لذكرها ولكن حذار أن يدخل فى روعك ـ أو يدور بخلدك ـ لحظة واحدة ـ اننا ننزه أبا العلاء ، واننا نطلق القول اطلاقا ، فنعصمه من كل خطأ ، أو نزعم له شيئا من ذلك ، انما هو انسان قبل كل اعتبار وبعد كل اعتبار .

ولكن كل مانقوله ، هو اننا ألفنا منه الدقة والاحكام . وهو لم يعودنا الثرثرة والهذيان . ولو وضعنا فى البوتقة كل ماقدمه لنا من المعادن لألفينا جله ذهبا خالصا ، غير مختلط بنحاس ، فاذا شذ ذلك شىء فهو الفكر الانسانى الذى لايسلم صاحبه من عثار أو كبوة فى أثناء تحليقه فى سمواته العلا والشعر كالشجر :

ركب فيه اللحاء والخشب الـ   يابس والشوك بينه التمر

ونوجز فنقول :

اننا اذا عددنا نخبة المفكرين والفلاسفة الذين تركوا أوضح أثر فى تاريخ الفكر الانسانى ، والذين هم أبعد الناس عن الاسفاف واللغو ـ فان أبا العلاء بلا شك يكون فى أعلى ذروة يجلس فيها أساطينهم وجبابرتهم .

وهذا كلام نؤكد للقارىء أننا نعنيه تماما ، واننا نقوله له جادين ، واننا أبعد الناس عن المبالغة حين نقرره .

فليس يمترى أحد درس أبا العلاء حق دراسته فى أنه قد خط للشعر العربى طريقا جديدا ، فيه جدية فلسفية ، وانه قد أودع لزومياته أسمى المبادىء الاجتماعية ، وأرقى أساليب النقد الصحيح ، والسخرية الخفية اللاذعة والدعابة القاسية التى تحوى الجد المر، بين ثناياها ، والتى تكشف عن النفس الانسانية وعن الطبيعة الخالدة .

النقد الادبى

شخصية (كامل كيلانى) تبدو فى طبيعته المتواضعة العالية التى ترغب عن الصيال ، أو الرد على ما يوجه الى صاحبها من نقد ، وكان قد بدأ حياته بمقالات فى النقد عام ١٩٢٠ بامضاء (ك٠ك) ، أحس بعدها أنه تزعم الميدان وأحرز الشهرة .

فنفض يده من النقد وازدراه ، اذ رآه عملا يوصل الى الشهرة دون عناء ، وهو الحريص على أن يصل بالجهد والعرق والسعى الموصول .

ويرى (كامل كيلانى) أن أعظم ماكان له من أثر هو نقده لشوقى حين

وجهه الى كتابة المسرحية الشعرية . فلما كتبها (شوقى) أحس الكيلانى بأن الخصومة بينهما قد انتهت ، ومن ثم صارا صديقين ارتبطت بينهما أواصر الود الصادق ، والحب الأكيد .

والكيلانى يعرض علينا نماذج من النقد الادبى الصميم فيما يلى :

١ ـ ابن الرومى كيف أغفله صاحب الاغانى

لو نطق الدهر هجا أهله   كأنه الرومى أو دعبل

(أبو العلاء).

ألف أبو الفرج الاصفهانى كتاب الأغانى لغرض خاص ، هو اثبات مائة الصوت ، التى اختيرت للرشيد ، ثم جره ذلك الى الاستطراد ، فذكر من الطرف والبدائع شيئا كثيرا ، حتى أصبح كتابه كنزا من كنوز الادب العربى لامثيل له .

فاذا أغفل أبو الفرج الاصفهانى التنويه بشاعر فحل كابن الرومى فهل تجد من يحتج له ؟ وأى دهشة تتملكنا ، بل أى حيرة تملأ نفوسنا حين نجيل البصر فى هـذه المجلدات الضخمة التى تؤلف دائرة معارف أدبية نادرة ، فنرى مؤلفها الذى أغفل ابن الرومى قد استطرد أكثر من ألف مرة الى ذكر من يستحق الذكر ومن لايستحقه ، والتنويه بشعراء ـ ان أجللناهم مرة ـ نزهنا ابن الرومى أن يوضح معهم فى ميزان أو يقاس اليهم بمقياس ورأيناهم الى جانبه أقزاما بجانب عملاق ؟

وقد عنى أبوالفرج ـ فى غير كتابه (الاغانى) ـ بدواوين من يحبهم من الشعراء . فجمع ديوانى أبى تمام والبحترى ، ورتب ديوان كل منهما على الانواع ـ لا على الحروف ـ كما عنى بجمع ديوان أبى نواس !

وتعمد الاغفال ظاهر . فأن أبا الفرج لم يذكر ابن الرومى فى كتابه (الاغانى) الا مرتين ، وكأنه لم يذكره الا ليسىء اليه ، بدلا من أن يشيد بذكره .

فقد ذكره فى موضع بمناسبة انتحاله بيتا من الشعر لابراهيم بن العباس (١) ، وذكره فى مكان آخر من الكتاب بمناسبة ـ نكبة سليمان بن وهب وابنه(٢) ليظهر لنا مظهر الشأمت. وكلا الموقفين لايشرف صاحبه.

---

(١) ارجع الى ج ٩ ص ٢٨ من كتاب الاغانى

(٢) ارجع الى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاغانى .

ففى الموقف الأول ، يوقفنا به سارقا منتحلا بيتا من الشعر ٠

وفى الموقف الآخر يقدمه لنا هاجيا فى غير موقف الهجاء ، ليثبت ـ أبو الفرج ـ فى الصفحة نفسها ـ رثاء البحترى لسليمان بن وهب الذى جود فيه ، كما يقول أبو الفرج ـ ثم يتبع ثناءه على البحترى اطراءه ابراهيم بن العباس والاشادة بذكره .

فاذا لم يكن ذلك اغفالا فهو عندنا شر من الاغفال ٠ واذا لم يكن أبو الفرج الأريب الفطن الرواية قد تعمد الاساءة الى ابن الرومى فكيف يكون تعمد الاساءة لغير ذلك ؟

لم يكن ابن الرومى خاملا فى عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة أبيات من شعره فى هذه الموسوعة الضخمة ٠

وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملا ٠ وهو وهم يفنده الواقع ٠ فلم يكن ابن الرومى خاملا ـ لافى عصره ولا بعده ولكن الناس كانوا يكرهونه لافحاشه فى الهجاء حتى لم يكد يسلم من لسانه انسان له خطر ٠ وكان الهجاء سببا فى قتله ٠

فاذا قال قائل : «ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل ، وذكر كثيرا من أخباره وهو وابن الرومى متهوران بسلاطة اللسان والاقذاع فى الهجاء » ؟

قلنا ان عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومى بقليل ٠ وقد مات من أساء اليهم دعبل ٠ وحقد الناس عليه ٠ فلم يبق هنالك بأس من الاشادة بذكره والتنويه بفضله ٠

أما ابن الرومى فقد أساء الى أعيان الدولة وكبار رجالها ، كما أساء الى شيوخ الأدب وزعماء الشعر ، ولم تزل اساءته ـ الى زمن أبى الفرج عالقة بالاذهان ٠ وما زال بعض من أفحش ابن الرومى فى هجائهم عائشا فى زمن أبى الفرج ، وربما كان من بينهم أقاربه وأصدقاؤه ٠

ولقد كان أبو الفرج من المتشيعين وكان ابن الرومى متهما بالتشيع ولم تكن هذه الصلة شفيعا له عنده ، ولا سببا يدعوه الى التنويه بذكره ٠

٢ ـ هجاء البحترى والاخفش

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعا ٠ وأفرط فى شتمه . وكانت للبحترى مكانة بين أعيان الدولة وكبار رجالها ـ حتى بعد موته ـ وقد رأينا أن أبا الفرج كان يحبه ويشيد بذكره ويعنى بآثاره ٠

ولا يتسع هذا المقام الضيق للاسهاب فى ذلك وشرح الاسباب التى دعت اليها فلنجتزئ بقوله فى هجائه من قصيدة :

قد قلت ــ اذ تحلوه الشعر ــ حاشى له
ان البروك به أولى من الخبب

وفيها يقول :

وحسبه من حياء القوم أن يهبوا
له قفاه ــ اذا ما مر ــ بالعصب(١)

ثم يقول :

الحظ أعمى ، ولولا ذاك لم تره
للبحترى بلا عقل ولا أدب

٣ ــ أدبنا الرفيع :

بدأ (الكيلانى) حياته بابن الرومى ــ قبل المازنى والعقاد ــ حيث حقق ديوانه ٠

وقيل له يوما ما : أكان شؤما عليك كما كان شؤما على المازنى ، فهيضت ساقه ، والعقاد ، فدخل السجن ؟

فقال : لقد كان شؤما على نفسه !

وكما أعد ديوان (ابن الرومى) أصلح ديوان ابن زيدون الذى لم يكن مطبوعا ، كما انه أخرج فى سنة ١٩٢٣ ، كتابه عن رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ٠

فاذا قيل : ان كتابه عن (الاغانى العالمية) التى ترجمها الى العربية شعرا وموسيقى ، هو أعظم أعماله ــ وهو الرائد لهذا الفن ــ قيل : ان هنالك عملا أجل خطرا ، لم يعرف عنه الناس شيئا بعد بالرغم من جلاله وخطره ٠

هذا العمل ، يعتبر مفتاح شخصية كامل كيلانى الأصيلة ، فالذين شهدوا « الكيلانى » وهو يتصدر (صالونه) الأدبى ويدير الحديث بلباقته الفذة يلمحون هذه الخصلة من خصاله ٠

---

(١) جماعات الناس ٠

انه مامن فن ، أو علم أو معنى يتحدث عنه الناس فى أدب من الآداب الا وجد له ضريبا فى اللغة العربية ، وقد جمع عن هذه (المعركة المشتركة ألفا وثمانمائة صورة) وهو يقول :

انها أبرع عملية فكرية فى الغرب بشهادة كبار النقاد ، وقد أردت ايراد هذه المعانى ، وما يقابلها فى الآداب العالمية ، لأقنع الشباب بجلال ادبنا ، وأضفت اليها خمسا وعشرين عملية فكرية من الادب العربى ، لاضريب لها فى الادب الغربى ، بجميع فنونه وألوانه ٠

وقد روى الاستاذ (كامل كيلانى) كيف بدأ هذا الاتجاه ، أيام كان طالبا فى كلية الآداب ، يستمع الى أستاذه (برسى وايت) عام ١٩١٨م.

وقد عرف فيه أستاذه ابتسامته ، ذات المعنى ، فقد كان يلاحظه ٠ فاذا ابتسم قال له أستاذه « برسى وايت » هل لها مثيل بالعربية ؟

وقد بدأ هذا الحوار عندما سأل أستاذه عن رأيه فى قصة (هى أو عائشة) فقال : (تحت درجة الاحتقار) ٠

وقال الكيلانى الطالب فى كلية الآداب :

(ابن الرومى) يقول فى هذا المعنى :

قومته بالشتم يهدى له فلم أجد قيمته تسوى

واليكم عرضا قيما ، من المعانى المشتركة بين الادبين : العربى ، والغربى ، ولنسمعه حيث يروى عن ذلك فيقول :

٤ ـ من المعانى المشتركة : مرساة السفينة

كان أستاذ الادب الفرنسى يحاضرنا فى شعر (لامرتين) ٠ فلما عرض لقصيدة (البحيرة) طالت بنا وقفة الاعجاب حين تلا علينا المحاضر أول القصيدة الرائعة التى بدأها الشاعر المبدع بقوله :

هكذا نظل دائما مدفوعين الى سواحل جديدة من الحياة فى ليل الأبدية المظلم لارجع ولا عود ٠

فهل يتاح لنا أن نلقى مرساة سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن ؟ وهل يقر قرارنا يوما واحدا ؟ ٠

طالت وقفة الاعجاب بما وفق اليه الشاعر الملهم من خيال بارع حين تمثل سفينة الحياة تندفع الى الامام فى غير تريث ولا توقف ، منتقلة

دائبة التنقل من شاطىء الى شاطىء ، متمنيا لو أتاح له القدر الدائب وسيلة يقف بها سير الزمن ريثما يتمتع بالبقاء مع من يحب ولو يوما واحدا ٠

كانت فكرة طريفة حقا ، ولكنها لم تكن وقفا على خيـــال الشاعر الفرنسي وحده ٠

دار بيننـــا حوار طـويل نسيت أن أذكره ، وبقى فى ذهنى بعض ماأوردته حينئذ من روائع ماقد أبدع شعراؤنا من الصور حين تحدثوا عن الزمن ٠

ان مرساة السفينة التى أبدعها خيال (لامرتين) ليقف بها سير الزمن تذكرنا بالحبال التى أبدعها امرؤ القيس منذ خمسة عشر قرنا فى معلقته الخالدة ، حين تمثل نجوم ليله الطويل ، مشـــدودة الى جبل يذبل بتلك الحبال المتينة المحكمة الفتل ، وقد خيل اليه الضجر أن نجوم الســـماء ثبتت فى أماكنها تثبيتا ، وان الفلك قد كف عن الدوران ، فصاح متبرما :

فيالك من ليـــل كأن نجومـــه بكل مغار الفتل شدت بيذبل !

والفرق بين الصورتين أن الشاعر العربى ضجر بطول الليل ، فتمثل الزمن قد كف عن السير ، بعد أن شدت نجوم ليله بالحبل ٠

وعلى العكس من ذلك أحس (لامرتين) أن ساعة البهجة توشك أن تفر من وجهه ،فتمنى لو ربط سفينة الزمن بحبل متين ، لتقف عن السير ٠

وقديما صرخ الشاعر العربى القديم (مالك بن الريب) حينما انتهت به رحلته الطويلة الى اجتياز أشجار الغضا ، ونزل عن ناقته ليستريح من عناء السير ٠ فلدغته أفعى ٠ فلما شعر بدنو أجله ، ورأى السم يسرى فى عروقه ، أنشد قصيدته المبدعة ، متمنيا لو طالت به الرحلة بين أشـجار الغضا دون توقف ، حتى لا ينتهى به الاستقرار الى هذه الخاتمة قال :

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

وما أكثر من تمنى طول الزمن ، وما أكثر من تمنى قصره !

وللشريف الرضى شكاية مزدوجة من طول الزمن وقصره جميعـا ، فهو يقول :

أشـــــكو الليـــــالى غير معتبة اما من الطـــــول أو من القصر
تطول فى هجرهم وتقصر فى الوصـــل فلا تلتقى عـلى قـــــــدر
يا ليلة كاد من تقـــاصرهـــا يعثر فيهـــا العشـــاء بالسحر

وللبحترى لفتة بارعة • فهو لايقنع بوقوف الزمن يوما واحدا ، كما قنع (لامرتين) فى قصيدة البحيرة ـ بل تشتد به الرغبة فى اســتعادة ماسلف من الأزمان • فهو يقول :

ليت أن الايام قام عليهــا من اذا ما مضى زمان يعيده

وقريب من هذا قول شيخ المعرة :

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا كلمـا فنى الشـهر

وقوله :

وأطربنى الزمان غداة ولى فليت سنيه صوت يستعاد

وهذا (ابن الفارض) يشارك (لامرتين) فى أمنيته فيود لو وقف الزمن عن سيره ، ليمتع بما هو غارق فيه من بهجة يقول :

يا ليــل طل ، يا نوم زل يا صـــبح قف لا تطلع

ويصف المعرى شعور المحب ، يرجو أن يطول الليل قليلا ، ولو بذل فى ذلك سواد القلب والبصر ، فيقول :

يود أن ظلام الليــل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

٥ ـ أقل من أن يحتقر

قال كامل كيلانى :

كانت احدى الصحف اليومية تنشر قصصا طويلة فى أعدادهــا المتتابعة لاحد كتاب الغرب ، وكان أكثر القراء شديدى الاعجـاب بذلك القاص •

وفى يوم ما ، خطر لاحد (الزملاء) من الطلاب أن يعرف رأى أستاذ الادب الانجليزى فى ذلك الكاتب القصـــصى ، فان الجواب مفــاجأة لسامعيه •

فلم أتمالك أن أبتسم • فســألنى الاســتاذ : ماالذى يدعوك الى الابتسام ؟

فقلت : أعجبنى طرافة الجواب ، فابتسمت •

فقال الاستاذ «ثم ماذا» ؟

قلت : وذكرت قول (ابن الرومى) فى مثل هذا الكاتب :

قومته بالشتم يهدى له فلم أجد قيمته تسوى

وقفز الى خاطرى قول (دعبل) :

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك، انه عرض عززت به وأنت ذليل

وقول آخر :

نجا بك عرضك منجى الذباب حمته قذارته أن ينالا

وقول (أبى نواس) فى دعى تعرض له بالشتم :

ما أنت بالحر فيلحى ، ولا بالعبد تستعتبه بالعصا

النقاد وكامل كيلانى :

عاش (كامل كيلانى) حياته فكرة خصبة منوعة ، وكانت آثاره الفكرية مع دقتها موضع التقدير والنقد والجدل ، وكان النقاد فى هذه الفترة يواجهون الآثار الادبية التى تصدر بأقلام مستعدة للنزال والعراك •

وقال الكيلانى : (ان شعارى فى الادب هو انه ليس من حقى أن أمنع الناقد من الكلام ، ولكن من حقى ألا أصغى اليه) •

أصدر (كامل كيلانى) فى فترة عام ١٩٢٨ م الى عام ١٩٤٦ م عددا كبيرا من المؤلفات تناول الكتاب منها بالنقد هذه المجموعة .

مصارع الخلفاء ـ مختار القصص ـ روائع من قصص الغرب ـ ملوك الطوائف ـ فن الكتابة ـ حديقة أبى العلاء ـ رسالة الغفران ـ ديوان ابن الرومى ـ ديوان ابن زيدون •

واننا لو نظرنا الى اختلاف نظريات النقاد والمؤلف وجدناها فى الغالب ، اختلافا لفظيا ، لايمس الفكرة ، ولا الجوهر بأى مساس •

وكان الكيلانى بجانب ذلك ، يؤمن بالعمل الايجابى للبناء وحده • فكان يصرف وقته كله فى الانتاج • ثم يدفع الى المطبعة بكتبه الواحد بعد الآخر ويدعها تحيا ، كأنها شخوص حقيقية • ولذلك نجده لايهتم بالنقد، قدر اهتمامه بالتأليف والاخراج اللذين عنى بهما ، وتفانى من أجلهما.

وكان يؤمن بالحكمة القائلة :

(خير العمل أدومه وان قل) .

ويرى أن (أبا العلاء) قد أجاد فى بيته الذى يقول فيه :

فلتفعـــل النفس الجميل لانه خير واحسن لا لأجـل ثوابهـا

تاديب التاريخ

بدأ (كامل كيلانى) حياته الادبية وفق أسلوب يوحى بأن مكانه الطبيعى انما هو بين صفوف الادباء .

وكان اتجاهه الى التاريخ أغلب ، اذ كتب عن : (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الاعيان) .

ثم اتصل بالادب الاندلسى ، واتجه بعد ذلك – بعنف الى (المعرى) حيث عاش معه طويلا ، وتأثر به ، حتى غدا رفيقه فى كل لحظات حياته .

ولكن مع كل ذلك اتجه وجهة ثقافية عالية ، اذ قام بدور هام من أجل الانتفاع بالتراث الاسلامى والعربى عن طريق الفن القصصى . فكان دوره ازاء ذلك هو تأديب التاريخ واللغة ، فجعل من التاريخ واللغـــة أدبا مستساغا ، عن طريق الاقصوصة الجميـلة ، والمثـل العربى الاصيل وهانحن أولاء نعرض نماذج لذلك ، فنراه يقول :

الوعظ الكاذب

قال الكيلانى :

قال لى ولدى مصطفى يوماما ، وعلى وجهه أمارات الدهشة والعجب :

« انك توصينى يا أبى بالصدق ! »

قلت نعم !

قال : «وتنهانى عن الكذب » .

قلت نعم !

قال : «كذلك تفعل المعلمة» .

قلت : «حسن .. فماذا حدث ؟»

قال :

«حدث أن معلمتي ـ التي توصيني بالصدق ، وتمدحه لي وتنهاني عن الكذب ، وتبغضني فيه ـ قد كذبت » .

قلت :

« وكيف كذبت يامصطفى ؟ » .

قال :

«انها ضربتني ، فشكوتها اليك ، فلما سألتها أنكرت» .

فما ترون أيها السادة ؟

اذا كان هذا الطفل ـ وهو لم يعد السادسة من سني حياته ـ قد فطن الى التناقض بين قول المدرسة ، وفعلها ، وأدرك أنها تأمر بما لاتأمر به نفسها ، أفترونني قد بالغت اذ قلت :

ان أذهان العامة لن تكون أقل من ذهن هذا الطفل ادراكا وفهما لما يقع من التناقض بين أقوال وعاظهم ، ومرشديهم ، وأفعالهم ؟

الحق أن العامة ـ مهما بلغ بهم الجهل ـ لن يكونوا أقل انتقادا لوعاظهم من الاطفال .

ولست أدري كيف يأمرنا الواعظ بالصدق ويكذب ؟

وكيف يأمرنا بترك الحلف ويحلف ، كذلك الذي يقول : « والله ماحلفت صادقا ولا كاذبا » أو كذلك الذي أراد ألا يبوح بحب معشوقته، فباح بها في قوله :

لا لا أبوح بحب بثنة انها أخذت على مواثقا وعهودا

وكيف يأمرنا الواعظ بحسن المعاملة ، وهو نفسه أسوأ مثل للمعاملة ؟.

وكيف تمتلىء قلوبنا خشية من واعظ منافق ، يأمر بما لايأتمر به ، ويقرر ما لا يفعل ، و كيف نخلد بثقتنا الى رجل :

طلب الحسائر وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامه أضحى يمثل في النفوس ذهولها

نعم . كيف نصغى الى واعظ وصفه أبو العلاء ، وأبدع فى وصفه فقال :

رويدك قد غررت ــ وأنت ندب   بصاحب حيلة ــ يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا   ويشربها ــ على عمد ــ مساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى   فمن جهتين ــ لا جهة ــ أساء

فان كان بعض الوعاظ يحسب أن مايقترفه سرا مستورا غير معروف ولا ذائع ، فما أشد ضلالته ووهمه !

قال كاتب انجليزى :

اذا دار بخلدك ــ لحظة واحدة ــ أن أسرارك التى تحرص عليها، وتمعن فى تكتمها لم يعرفها الناس جميعا، فقد خدعت نفسك خداعا بينا.

وقال الشاعر العربى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وانخالها تخفى علىالناس ــ تعلم

اخلاق الصحابة

لقد افاد الناس من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وأعماله ، أضعاف ما افادوا من أقواله ومواعظه .

كذلك كان الصحابة والخلفاء الراشدون أئمة للأخلاق الفاضلة . فأفاد الناس من أفعالهم أضعاف ماأفادوا من أقوالهم .

ألا ترون مثلا الى عمر بن الخطاب ، يجلد ولده ــ عقابا له ــ ولا يتهاون فى اقامة الحد عليه ؟

ثم ألا ترون اليه ، وهو يعنف ابن العاص بقولته الحكيمة المأثورة :

(متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟) .

ألا ترون اليه تخطئه امرأة ، فيعترف لها بالغلبة ويذعن للحق اذعانا ويقول قولته المشهورة :

(أخطأ عمر ، وأصابت امرأة ؟)

وليس هذا الا مثلا من أمثلة عدة يعيينا أن نتقصاها .

ألا ترون الى (كاميل فلا ماريون) مثلا كيف عاقب نفسه بغرامة

ـ وقد كان قاضيا ـ فأصدر على نفسه حكما ، كما يصـــدره على عامة الناس ؟

ألم تسمعوا قصة القاضى الذى أهانه ابن مليكه ـ وهو فى منصة القضاء فزج به فى السجن ، فلما علم الملك بذلك فرح أشـــد الفرح ، وقال :

(الحمد لله الذى جعل فى بلادى قضاة يقيمون العدل حتى على ولدى نفسه) .

موقعة أحد ـ عاقبة المخالفة :

كان النصر محققا للمسلمين فى بداية الموقعة .

فلما خالفوا أمر النبى عليه الصلاة والسلام ، وانتقلوا من مواضعهم كر عليهم المشركون ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، فيهم حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم ، واستطاع العدو أن يخلص الى النبى ، فيرميه بالحجارة .

فأصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفتاه ، ودخلت حلقتـــان من حلق المغفر فى وجنته . وسقط فى احدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون .

وبذا تتبين لنا عاقبة المخالفة .

وفاء الصحابة

على أنه فى موقعة أحد السالفة الذكر ، يتجلى لنا مثل عال من أمثلة الاخلاص ، والتفانى فى الوفاء . اذ يقبل الصحابة على النبى عليه الصلاة والسلام مستبسلين يفدونه بأرواحهم .

يأخذه على بيده .

ويرفعه طلحة بن عبيد الله .

ويحيط به جماعة من الانصار والمهاجرين ليقوه السوء بنفوسهم .

وتتجلى شجاعة المرأة العربية واضحة ، فلا تقل عن شجاعة (جان دارك) التى لايكاد يخلو من ذكرها كتاب فرنسى من كتب التاريخ، والتى ملئوا الدنيا اعجابا بها .

تنحاز (نسيبة بنت كعب) الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وتتفانى فى الذود عنه ، وكانت تسقى فى أول النهار ٠ فلما رأت هزيمة المسلمين أسرعت الى النبى تفديه بنفسها ، ضـــاربة بســـيفها مرة ، ورامية عن قوسها أخرى ، حتى أثخنتها الجروح !

فضل الصبر (صبر الصحابة)

كان النبى عليه الصلاة والسلام ، يذكر يوما ما قد لاقى من قومه من الجهد والشدة قال :

« لقد مكثت أياما ، وصاحبى هذا (يشير الى أبى بكر) بضع عشرة ليلة مالنا فيها من طعام الا البرير (ثمر الأراك أو السواك) فى شعب الجبال » ٠

وكان عتبة بن غزوان يقول فى وصف الشدة التى كانوا عليهـا بمكة :

(لقد مكثنا زمانا ، مالنا من طعام الا ورق البشام ٠ أكلناه حتى تقرحت أشداقنا . ولقد وجدت يوما ثمرة ، فجعلتها بينى وبين سعد ، وما منا اليوم الا وهو أمير على كورة) .

وكانوا يقولون فيمن وجد تمرة فقسمها بينه وبين صاحبه : (ان أسعد الرجلين من حصلت النواة فى قسمه ، يلوكها طول يومه وليلته ، من عدم القوت) .

الاعتداد بالنفس :

جاء صلى الله عليه وسلم يوما ، ليدخل الكعبة ٠

فدفعه عثمان بن طلحة العبدرى ، فقال :

(لا تفعل ياعثمان ٠ فكأنك ومفتاحها بيدى أضعه حيث شئت)

فقال : (لقد ذلت قريش وقلت)

فقال : (بل كثرت وعزت)

وانظروا الى حواره صلى الله عليه وسلم ، مع قريش ، حين قالت له تفاخره : (هل أتباعك من هؤلاء الموالى (كبلال ، وعمار ، وصهيب) خير من قصى بن كلاب ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس ؟)

فقال : نعم : والله لو كانوا قليلا ليــــكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم ، ويقتدى ، فيقال :

(هذا قول فلان)

(وذكر فلان)

فلا تفاخرونى بآبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية .

اتبعونى أجعلكم أنسابا .

والذى نفسى بيده ، لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر .

فقال له عمه أبو طالب :

« أبق على وعلى نفسك »

فظن النبى أنه خاذله ، فقال : (يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته) ثم استعبر باكيا ، ثم قام ، فلما ولى ناداه : « اقبل يا ابن أخى » فأقبل . فقال :

« اذهب ، وقل ما شئت ، فوالله لا أسلمنك لسوء أبدا . »

تدريس النحو والقواعد بالقصص .

لقد بلغ ولوع بعض الناس بالأسلوب القصصى حدا عجيبا :

أذكر لكم ـ على سبيل المثال ـ أن مدرسا فاضلا من مدرسى العربية كان يدرس لنا ـ فى مدرسة أم عباس الابتدائية . وكانت نتائجه أبهر النتائج ، وتلاميذه أقوى التلاميذ . وكان السر فى ذلك ، هو اسرافه فى حب القصص وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصى حدا مدهشـــا جعله يشرح لنا ـ فى قواعد اللغة العربية ـ « أثر كان وأخواتها وأثر ان وأخواتها » بأسلوب قصصى جذاب يحبب فى النحو أزهد الناس فى النحو .

كان يشرح لنا أثر كان وأخواتها فى معموليها ، وأثر ان وأخواتها ، كذلك يقول :

المبتدأ والخبر ، أخوان . وهما دائما رافعا الرأس . ففى ذات يوم بينما هما جالسان فى بيتهما اذ ســـمعا قرعا بالبـــاب . فأسرعا الى زائرهما ، ففتحا له الباب ، ورحبا به ، وأرادا أن يقدما له شيئا من الحفاوة ، بعد أن سألاه عن اسمه ، فقال لهم « اسمى كان » .

فقالا لها :

« أهلا وسهلا ومرحبا ، ماذا نستطيع أن نقدم لك من قرى واكرام ؟ »

فقالت :

« أريد أن أصاحبكما ، وأن تترك صحبتى أثرا ظاهرا أكون معروفة به من بين رفاقكما جميعا » ٠

فقالا :

« وأى أثر تريدين ؟ »

فقالت :

« أن أنصب أحدكما »

فلا تكاد تتم قولها ، حتى يتقدم اليها الخبر ، مرحبا بشرطها هذا ، راضيا بحكمها ٠

وانهم لكذلك اذ يسمعون قرعا عنيفا بالباب ٠ فاذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيفان ، فيسألونهم :

« من أنتم ؟ » فيقولون لهم : « نحن أخوات كان »

وبعد أخذ ورد يظفرون بمثل ما ظفرت به كان ٠

فاذا جاء اليوم التـــالى جاءت « ان » زائرة ٠ وطلبت اليهما أن يمنحاها ميزة ، كما منحا كان بالأمس ٠

فيقدم المبتدأ فى هذه المرة مرحبا بشرطها ٠ ولا يكاد يفعل حتى تأتى جميع أخوات ان طالبة مثل طلبها فيظفرن به ٠

هكذا كان يسلك ذلك المدرس الظريف ، فى شرح النحو وتحبيبه الى نفوس الطلبة ٠ وهى طريقة ظريفة كانت تحبب الطلبة فى دروسهم وترغبهم فى الافادة من علمه ٠

ثم ذكر الكيلانى أمثلة أخرى كثيرة ، وختمها بقوله :

فاذا أردت مثل العقوق ، ومثل الوفاء ، فأمامك حكاية (أبى صير وأبى قير) وهى من (ألف ليلة وليلة) ٠

واذا أردت مثل القضاء ، والقدر ، فأمامك حكاية (الملك العجيب) وهى من (ألف ليلة وليلة) أيضا ٠

واذا أردت مثلا على أن لكل مقام مقالا فاقرأ حكاية العم « عمارة » وهي مشهورة · لا حاجة بنا لذكرها ·

وجملة القول أن القصص وضرب الأمثلة محببان الى نفوس الكبار والصغار معا ، وهما من خير الوسائل التى يلجأ اليها المتكلم ، لتقرير فكرة ، أو لتعزيز مبدأ فى أذهان سامعيه ·

موازنة بين جحا وأبى العلاء وابن الرومى

الأسلوب الجحوى :

لقد كان الأسلوب الجحوى ومازال مثالا رائعا يفيض من اشراقه ومرحه على حقائق الحيـــاة الحرة ، فيكسوها من ألوانه الزاهية جدة واشراقا ·

والأسلوب الجحوى الباسم ، يكاد يقابل الاسلوب العلائى العابس حتى ليبلغ جحا — أحيانا — فى سبر أغوار الحياة المرحة الباسمة ، ما يبلغه المعرى بسخريته العابثة القاتمة ·

تقسيم الأرزاق

فنحن اذا استمعنا الى صرخة (ابن الرومى) وحيرته فى تقسيم الأرزاق ، وما فيها من تفاوت يحار فى تعليله اللب ، وينقطع منه نياط القلب ، حين يقول :

لا تعجـبن لمرزوق به هــوج	حظا تخطى أصيل الرأى أطرافا
فخالق النـــاس أعراء بلا وبر	كاسى البهـائم أوبارا وأصوافا

أو يقول :

ان للحـــظ كيميـاء اذا مـا	مس كلبـا أحـاله انســانا
يفعل الله ما يشـاء كما شـا	ء متى شـــاء كائنـا ما كانا

الى آخر ما يزخر به غلاة الســاخطين النـاقمين من أساليب تـكاد لفرط عنفها تلتهب التهابا ، وتكاد لغليانها تقذف بالحمم ، وترمى بشواظ نيران الفكر ، ويكاد اهاب قائلها يتقطع من الغيظ والنقمة ·

ثم رحنا نسمع الى (جحا) ، لنتعرف كيف يعبر عن هذه المعانى

الحزينة بأسلوبه الباسم الذى تنطوى فى ابتسامته أعنف معانى المرارة والجد ، رأينا العجب العاجب :

رأينا فيلسوفنا الساخر يحتكم اليه أربعة من عارفيه ، ليقسم بينهم (زكيبة) مملوءة بلحا :

فماذا يصنع ليعبر بأسلوبه المرح عن تلك المعانى الملتهبة التى عرض لها أعلام الساخطين على توزيع الأرزاق ؟

يقبل عليهم متبالها ويسألهم متغابيا : أى قسمة تريدون : قسمتى أم قسمة الله ؟

فيجيبوا على الفور : (بل قسمة الله يا جحا) ٠

فيعطى أحدهم بلحات خمسا أو ستا ٠

ويعطى الثانى حفنتين أو ثلاثا ٠

ثم يعطى الثالث كل ما فى الغرارة من بلح ٠

ثم يحرم الرابع ، فلا يعطيه شيئا !

ويتركه يضرب كفا على كف من فرط الحيرة والدهشة ٠

فاذا سألوه : أى قسمة هذه يا جحا ؟

أجاب فى تغافل الساخر العميق :

أليست هذه قسمة الله ؟ أليس يعطى واحدا دراهم معدودة ، ويعطى الثانى المئات من الدنانير ، ويعطى الثالث من خزائن الأرض وكنوزها ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ٠

ثم يترك الرابع ، فلا يعطيه شيئا ؟

أليس فى هذا لون من التعبير الجحوى الباسم المرح ، يترجم عن قول الكثيرين من كبار الساخطين ؟

أليس فى هذا لون من قول المعرى :

كذلك مجرى الرزق : واد ٠ به ندى
وواد ٠ به فيض ، وآخر ذو قفر ؟

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحدا وهو أحوج

يقول الحلاج :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه   وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا

الى آخر ماقاله المبدعون الساخطون .

ولقد أكثر الشعراء ، وافتنوا فى وصف سوء الحظ ، ولكن قل من بلغ منهم مبلغ صاحبنا فى التعبير بالدعابة التالية :

قالوا ان النحس لازمه أياما ، فلم يكد يهم بشراء قطعة من الصابون ليغسل ثيابه بها حتى تتلبد السماء بالغيوم وتتكاثف السحب ، وتدوى الرعود وتبرق البروق . وذهب ذات يوم الى بائع الصابون ليدفع له دينا اقترضه منه ، ولم يبلغ دكان صاحبه ويهم باعطائه دينه حتى غامت السماء ، وتكاثفت السحب ودوى الرعد ، وأبرق البرق .

فحملق الى السماء متظاهرا بالدهشة وهو يقول : عفوك اللهم ، فما أردت شراء صابون لغسل ثيابى ، ولكنى أردت قضاء دينى لبائع الصابون !

فائدة المصائب

واذا قال (ابن الرومى) :

ومحال أن يسعد السعداء الد   هر الا بشقوة الأشقياء

وقال المتنبى :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها   مصائب قوم عند قوم فوائد

وقال أبو العلاء :

غنى زيد يكون لفقر عمرو   وأحكام الحوادث لا يقسنه
وحجر فى الحقيقة مثل حجر   ولكن الحروف به عكسنه

وقال :

وسخط الظباء بما تألها   تولد منه رضا الحابل

فكيف يعبر صاحبنا عن هذا المعنى بأسلوبه الجحوى الرائع :

يخبرنا الرواة أن (جحا) سافر ذات مرة لزيارة بنتيه ، وكان زوج أولاهما زارعا . وزوج الأخرى فخاريا : يصنع الفخار ويبيعه .

فعرج على الأولى يسألها :

كيف أنت ؟

فأجابته : بخير ــ يا أبتاه ــ اذا أغاثنا الله فى هذا العام بما نأمله من الغيث ٠ فادع لنا الله سبحانه أن ينزل علينا أمطارا غزيرة تحيى موات أرضنا ، وتجلب لنا ما نرجوه من رخاء وهناءة ٠

ثم عرج على الأخرى ، ولما سألها عن حالها أجابته :

نحن بخير يا أبتاه ــ اذا انقطع الغيث عنا فى هذا العام ، فادع لنا الله أن يكف عنا المطر حتى ينجو من البــوار والتلف ما عندنا من الآنية والتحف ، التى جهدنا فى صنعها من الفخار والخزف ٠ فخرج صاحبنا وهو لا يدرى بأى الدعوتين يبتهل الى الله ؟

فمصيبة هذه ، فائدة تلك ، واستجابة احدى الدعوتين ــ كما ترى ــ شقاء احدى بنتيه وهناءة لأخرى ٠ ولا مناص من ذلك على أية الحالين ؟

وفى هذه القصة تعبير رائع عن قول المتنبى الذى أسلفناه ، حيث قال :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها   مصــــائب قوم عند قوم فوائد

ثم يخبرنا الرواة أيضا أن لصا سرق من جحا عشرين دينارا ٠

فذهب جحا الى المسجد ضارعا الى الله أن يعيدها اليه ٠ وأراد الله سبحانه أن يلهم تاجرا من أهل القرية كادت العواصف تغرق سفينته أن ينذر لذلكم الرجل الصالح عشرين دينارا اذا كتب الله السلامة لمركبه ٠

فلما ظفر التاجر بالسلامة ، وفى صاحبنا بنذره بعد أن قص عليه قصته ٠ فأطرق (جحا) برأسه الى الارض ثم قال ، بعد تأمل عميق :

(تباركت يا رب فى علاك)

لو أننى سلفت أحدا هذا المبلغ لأعاده فى هدوء ، دون أن يخطر على باله أن يزعج أحدا أو يعرض حياته للتلف ليرد مبلغى الى ٠

وهو ــ كما ترى ــ تعبير جحوى بارع ينطوى ــ فى فكاهته ــ على أقصى الجد المرير ٠

وفى هذا يقول فى بعض خواطره :

وهكذا ترك لى (أبو مرة ظالم بن الحارث) زاده كله ، فرحت آكل من طعامه هنيئا مريئا بعد أن هيأت لى كوارثه ، ونكباته ، ما لم تهيئه لى مباهجه ومسراته . الى أن يقول :

وكم سعد سعيد بشقوة شقى . وكم للقدر من تصريف خفى .

وغرق مركب بمن فيه ، ولم ينج أحد من راكبيه ، فهلك المسافرون والربان ، وراحوا زادا للسمك والحيتان !

تم هذا كله . فكان ماذا ؟

قامت المنادب فى ديار الغرقى والمناحات ، وأعلنت الأفراح فى قاع البحر وعمت المباهج والمسرات !

ولولا غرق المركب بمن فيه من الناس ، ما تم للسمك ما يطمح اليه من بشر وايناس ، وما كانت الولائم والأعراس . وكم للقدر من عجائب وفنون . ولله فى خلقه شئون ! .

موازنة بين الحقيقة والخيال

الخيال كالمجهر يكشف من دقائق الفكرة وخفاياها وأسرارها ، كما يكشف المجهر دقائق الذرة ، وخواص تركيبها .

والخيال هو احدى وسائل الشاعر والكاتب والقاص ، تلك التى يستعين بها على توضيح ما غمض من الحقائق ، وتبيان ما استتر واحتجب من المعانى الدقيقة والخوالج النفسية الخفية .

وكما يلجأ المصور الى التصوير الكاريكاتيرى ، ليظهرك على جوانب خفية لا يصل الى توضيحها التصوير العادى ، وكما يلجأ الحاسبون الى الرموز الجبرية ليصلوا بها الى حقائق عددية ، لا سبيل الى استخراجها بغير هذه الرموز ، فكذلك يلجأ صاحب القصة والمثل والأسطورة الى أشباه هذه الرموز الجبرية ليتوصلوا بها الى حقائق ثابتة ، لا سبيل الى ادراكها بغير هذا الطريق .

بحوث لغوية

صور جديدة من الأدب العربي •

مناظرة الكسائي وسيبويه •

مسألة العقرب والزنبار •

كان من أثر المناظرة التى قامت بين الهمذانى و (الخوارزمى) أن الخوارزمى مات بعد قليل من الزمن ، ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة •

وكان من أثر المناظرة التى قامت بين الكسائى وسيبويه أن سيبويه مات كمدا ، وهو فى ريعان شبابه وجن نشاطه ، كما يقولون ـ ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة •

وليست الطرق التى لجأ اليها الكسائى بأقل قسوة من تلك الطرق التى سلكها (الهمذانى) للتغلب على الخوارزمى والانتصار عليه •

على أن الهمذانى ، قد أعد عدته وهيأ لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه . وزج به فى مجلس كله خصومة ولدد ، واقول فى هذه المناظرة : ان الكسائى لم يقصر فى اعداد كل الوسائل لهدم سيبويه ، ولم يتعفف عن شئ فى سبيل الانتصار عليه • واذا كان الهمذانى قد لجأ الى تملق شهود المناظرة لينصروه على الخوارزمى ، واشترى ذممهم بهذه الحيلة فان الكسائى قد لجأ أيضـــا الى نفوذه وجاهه ومـاله ، واتخذ من صـــداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير المؤمنين وسيلة للتغلب على سيبويه •

ولئن شكونا فى المناظرة السابقة قلة المصادر التى نرجع اليها فى تحقيقها ولم نجد غير رواية (الهمذانى) نفسه ـ وهى رواية خصم عن خصمه ـ ان ما نشكوه فى هذه المناظرة هو تعدد المصـــادر وكثرتها ، وتباين روايتها ، وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه •

على أن هذه الروايات ، على الرغم من اضطراب بعضها واختلافه فى التفاصيل ، متفقة فى الأساس والجوهر • فهى ـ من أية ناحية رأيت ،

وبأية رواية أخذت ـ تدل على أن سيبويه قد ظلم ، وأن الحق كان فى جانبه ·

وقد أجمع علماء النحو واللغة ـ فى زمن سيبويه وبعد زمنه ـ على أن الصواب ما قال · وأن الكسائى كان فى الجانب الخاطىء · ولم يشذ عن هذا الاجتماع الاشيعة الكسائى ، والطامعون فى ماله أو جاهه ، والمحسوبون عليه ، وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية ·

وليست هذه المناظرة على الحقيقة ـ ان صح أن نسميها مناظرة ـ الا نضالا بين مذهبين ، وحربا بين مدرستين ، مدرسة الكوفيين ، ومدرسة البصريين ، ممثلتين فى شخص الكسائى زعيم علماء النحو فى الكوفة وشيخ مدينة الاسلام ، وسيبويه زعيم علماء النحو فى البصرة وتلميذ الخليل بن احمد بن سيد أهل الأدب ـ كما كانوا يلقبونه ـ وقد لعبت الأهواء من سياسية وغيرها فى تغليب رأى الكسائى على رأى سيبويه (١) ·

على أن فضل سيبويه ذائع ـ على الرغم من انتصار الكسائى عليه ـ وكتابه الذى ألفه فى النحو لم تبل جدته الى اليوم · ومازال كتاب نحو وأدب معا · وأسلوبه فى أعلى طبقات البلاغة · وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه (هل ركبت البحر ؟) تعظيما لشأنه ·

وكان الزجاج يقول : « اذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة ·

كيف كانت المناظرة ؟

لم يكد يرد سيبويه العراق ، حتى شعر الكسائى أن مركزه العلمى فى خطر ، وأن منافسا جديدا يحاول أن يغتصب منه مقام الزعامة ·

قالوا : « وشق أمره على الكسائى فأتى جعفرا ويحيى ابنى برمك ، وقال : « أنا وليكما وصاحبكما · وهذا الرجل انما قدم الى العراق ليذهب محلى » ·

قالا : فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما ·

وهكذا دبرت المؤامرة فى بيت البرامكة لهدم سيبويه · فلما حان الموعد حضر سيبويه · وجاء الكسائى ومعه الفراء الأحمر وغيرهما من

---

(١) كان العباسيون يقربون اليهم الكوفيين لانهم نصروهم في دعوتهم لقيام دولتهم ، وكان لهذا الاعتبار أكبر الاثر في اتصالهم بالخلفاء ·

أصحابه . فسأله الفراء عن مسألة فلم يكد يجيبه عنها حتى قال له : « أخطأت » وسأله عن ثانية ، فأجابه ، فقال له « أخطأت » .

ثم سأله عن ثالثة ، وقال له : « أخطأت » .

فقال له سيبويه : « هذا سوء أدب منك » .

فقال الفراء لصاحبه : « يظهر أن فى هذا الرجل عجلة . وحدة »

وسأله الأحمر عن مسائل عدة ، فكان يخطئه فى كل جواب يفوه به .

قالوا : « فلم ير سيبويه الا أن يكف عن مناقشتهما » .

وهنا يقول له الكسائى ـ ولعلك تلمح فى جملته معنى التحقير والاستصغار « يا بصرى » كيف تقول :

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبار . فاذا هو هى ، أو فاذا هو اياها .

قال : « أقول ، فاذا هو هى » .

فأقبل عليه الجمع فقالوا : « أخطأت ولحنت » .

وفى هذا مثال من التهويش والتحامل على سيبويه .

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك : « هذا موضع مشكل حتى يحكم بينكم » فيقول الكسائى :

« هؤلاء الأعراب على الباب » .

قالوا : « فأدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه » .

فقال لهم الكسائى : كيف تقولون : « قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبار ، فاذا هو اياها أو هو هى .

فقالت طائفة : فاذا هو هى

وقالت أخرى : فاذا هو اياها

فقال الكسائى : « هذا خلاف ما تقول يا بصرى ! » .

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبوية ـ وهو الغريب المستوحش فيقول له ما يشعره بأن صاحب الدار من رأى الكسائى وشيعته : « قد تسمع أيها الرجل ! » .

فلا يكاد سيبويه يسمع هذه الجملة حتى يستكين ، ويسرع الكسائى الى يحيى ، فيقول له ، حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت ، وأن الغلبة قد تمت له : « أصلح الله الوزير ، لقد وفد عليك من بلده مؤملا ، فان رأيت ألا ترده خائبا ٠

فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم ٠

وكأنما ألف الكسائى أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه اقرارهم بزعامته العلمية التى يسعى الى الانفراد بها عند الخليفة ٠ ولعله حسب أن هذه المنحة تنسى سيبويه تلك الصدمة العنيفة التى سببها له ٠

على أن الكسائى طالما اشترى بالمال الألسن والذمم :

ألا ترى الى الأخفش يذهب الى الكسائى غاضبا ـ بعد أن أخبره سيبويه بما حدث له معه ـ فيسأل الكسائى وهو بين تلاميذه ويخطئه فى كل جواب يقوله ، فيهم تلاميذ الكسائى بضربه فيمنعهم من ذلك ، خوفا من ذيوع أمره ٠ ويقبل عليه فيعانقه متحببا اليه ، ويعهد اليه بتعليم أولاده ، ويرشوه بالمال ، فينسيه بذلك ثأر صديقه سيبويه ؟

الفكاهة الجحوية فى الأدب الشعبى

يقول : (كامل كيلانى)

الفاكهة ثمرة الأرض ٠ كما أن الفكاهة ثمرة العقل ٠ وقد اتخذت كل أمة فى كل عصر ومصر ، شخصا من الشخوص الجحوية الباسمة رمزا لفكاهاتها ، تسند اليه كل طريف من فنون دعابتها ٠ فكثرت الشخوص (الجحوية) لذلك وتعددت ٠ فلم يكد يخلو منها زمان ولا مكان ٠

وقد عرض القصاصون كثيرا من الطرائف الجحوية ، وفصلوا منها أنماطا فكرية ، ألبسوها عرائس أفكارهم ، وأودعوها نفائس توجيهاتهم وآرائهم ٠ فلم تلبث على مر الازمان واختلاف الامم أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها كما يتشكل الماء بلون الاناء الذى يستودعه ٠

وأصبح الرمز الجحوى ـ على توالى العصور ـ أشبه بالرمز الجبرى ٠ يختلف مدلوله فى كل مناسبة عما سبقتها ٠

ولو خلا العالم من أمثال هذه المفارقات لأصبح جحيما لا يطاق ٠ وطالما استعاذ بها أعلام الفكاهة من المصلحين والقادة فى كسب قضاياهم ٠

وربما اغنت النكتة العابرة الملهمة - ينطق بها الفكه الموهوب عن المقالات المستفيضة ٠

وطالما تناول الموهوب الفكه بدعابته أدق الخفايا ٠ فأربى على الغاية٠ وأى فكاهة أبرع من فكاهات (أبى الغصن) (جحا) العربى ، حين أذاع أنه سيطير فى أصيل يوم الجمعة القادم ، من فوق مئذنة مسجد الكوفة ٠ حتى اذا حان الموعد وتجمع الناس من كل مكان ، وضاق بجموعهم الميدان، أطل عليهم (جحا) من أعلى المئذنة ، ونظر اليهم ساخرا من بلاهتهم ، ومد ذراعيه ملوحا بهما فى الهواء ٠ وحرك يديه مرة بعد أخرى ، كأنما يتهيأ للطيران ٠ وقد خيل الى النظارة أنه جاد فى محاولته ٠

فلما طال بهم الانتظار ، التفت اليهم ساخرا ، وقال :

(كنت أظن أن جحا هو وحده المنفرد بالجنون فى هذا البلد ٠ فاذا كل من أرى أجن منه ٠ خبرونى أيها العقلاء : كيف صدقتم أن (جحا) قادر على أن يطير بغير جناحين ؟

وكيف يصح فى الأذهان أنى على اظهار معجزة قدير
وكيف يصدق العقلاء زعمى ولست بطائر أنى أطير

وأى سخرية أبرع من سخريته من والى الكوفة حين بدأ شكواه قائلا :

ان لمولاى الوالى ــ فيما أعلم ــ ثورا أحمر ٠

ــ صدقت يا أبا الغصن ، فما باله ؟

ــ نطح بقرتى البيضاء ، فشق بطنها وأخرج أمعاءها وقتلها على الفور ٠

ــ وما شأن الوالى بذلك ؟ وأى سلطان لى على الحيوان ؟ أتريد أن أعاقب الثور على فعلته ؟

ألا تعلم أن دم الحيوان جبار (١) ؟

ــ صبرا ياسيدى ، وعفوا ، لقد دفعتنى العجلة الى رواية القصة معكوسة :

---

(١) جبار : هدر .

ــ ويحك ! فماذا كنت قائلا ؟

ــ أردت أن أقول : ان بقرتى البيضاء هي التى نطحت ثور مولاى الوالى فقتلته •

ــ ويلك ! لقد تغير وجه المسألة الآن ، فأعد على القصة ، لأرى فيها رأيى من جديد !

وأى قارىء فكاهات هذا الساخر المبدع لا يعجب بتهكمه البارع حين سأله جاره (سالم بن دينار) أن يعيره حماره ، فاستمهله (جحا) ريثما يستشير حماره في ذلك •

ثم عاد اليه متظاهرا بالأسف !

ــ ماذا قال الحمار ؟

ــ رفض مصاحبتك !

لماذا ؟

ــ لأنك ــ فيما تقول ــ لم تجزه على خدمته بأكثر من ضربات على ظهره ولعنات لصاحبه !

أليست هذه الدعابة أروع وأعمق من قول زهير بن أبى سلمى ، فى معلقته الخالدة :

ومن يصنع المعروف فى غير أهله يكن حمده ذمـــا عليه وينـــدم !

وما ينبغى أن ننسى اجابته لبعض الحمقى حين تهدد (جحا) أن يقتله اذا عجز عن اجابته عن أربعين سؤالا مختلفا بجواب واحد •

فأنصت اليه جحـــا ، حتى اذا فرغ من أسئلته ، قال له متظاهرا بالجد :

ــ أتريد جوابا واحدا عنها جميعا ؟

ــ لأأريد غير ذلك •

ــ لا أدرى :

فتكون هذه الكلمة الحكيمة جوابا شافيا لمسائله الاربعين ، يخلصه من بطش سيد المجانين !

وما أحكم قضاءه حين يتقدم اليه مختصمان ، يدعي أحدهما على صاحبه أنه أكل خبزه على رائحة شوائه ، ويطالبه بثمن الشواء الذى لم يأكله .

فيسأله (جحا) : وكم ثمن الشواء الذى أعددته له ؟

فيجيبه : ربع دينار .

فيأخذ الثمن من الآكل ، ويسمع الشواء رنين ربع الدينار ، ثم يرجعه الى صاحبه قائلا :

ان رنين المال ثمن كاف لرائحة الشواء !

ويختصم اليه رجلان آخران ، يدعي أحدهما أنه ساعد صاحبه فى حمل حزمة من الحطب بعد أن سأله :

– ماذا تعطينى أجرا على مساعدتى اياك ؟

فأجابه : لا شىء !

– أريد أن يعطينى هذا اللاشىء الذى وعدنى به !

– ارفع هذه الوسادة (المخدة) أيها الرجل ، وخبرنى :

– ماذا ترى تحتها ؟

– لا شىء .

– خذ لا شيئك من تحت الوسادة ، واذهب لشأنك !

وهذا ، أحمد المعطرى من أعلام الشخوص الجحوية الحديثة فى صنعاء ، يأتمر به جماعة من الخبثاء ليورطوه فى مأدبة عشاء ، فلا يتردد فى القبول ، ويصبر عليهم حتى اذا خلعوا نعالهم بالباب ، واستقربهم الجلوس على وسائده ، جمع المعطرى (جحا صنعاء) أحذية أصحابه ، وأسرع بها الى السوق ، فباعها ، واشترى بثمنها طعاما لأصحابه .

ثم يطيلون الحديث والبحث عن أحذيتهم على غير طائل ، ويقبلون عليه يسألونه عنها ، فيجيبهم ساخرا :

أحذيتكم فى بطونكم !

وهذا (ارتين) « جحا الارمن » ، يرى أحد البخلاء ، مشرفا على الغرق ، ويسمع أصحابه ينادونه : هات يدك .

فيقول لهم (أرتين) ساخرا :

لا تقولوا له هات ، فانه ينفر منها ، بل قولوا له : خذ أيدينا ، اذا كنتم جادين فى انقاذه !

فاذا تركنا باب السخرية الى ما يشاع عن (جحا) فى بلاد العالم ، من ضروب الغفلة ، وجدنا طرائف لا تحصى . فهذا (بات) جحا أرلندة ، يبعث الى صاحبته بالكتاب التالى :

أرسل اليك هذه الرسالة ـ يا عزيزتى ـ وأنا غير آمن على وصولها اليك ، لأننى سيىء الظن بالبريد هذه الأيام . فاذا لم تصل ، فلا تتوانى عن الافضاء الى بذلك ، لأبعث اليك برسالة أخرى !

وأحب أن أنبهك الى أن القلم الذى أكتب به الآن من نوع ردىء . فاذا عثرت على خطأ فى رسالتى فعلى هذا القلم الملعون وحده تبعة ماتجدين من غلط !

وهذا (جورج) جحا لندن ، يقسم ليكفن عن الخمر ، فلا ينقضى على عهده ثلاثة أيام حتى ينازعه الحنين اليها فى اليوم الرابع ، فاذا بلغ الحان ، عرج عليه قائلا :

هنيئا لك يا جورج ، عزيمتك الصادقة . لقد وفيت بعهدك أربعة أيام ، ولابد من مكافأتك على ذلك بكأس من الخمر .

فاذا جرع الكأس الأولى قال :

هذه مكافأة اليوم الأول . والثانية مكافأة اليوم الثانى !

ثم أسلمته الرابعة الى العشرين !

لمحة تاريخية :

وقد ولد (جحا العربى) أبو الغصن دجين بن ثابت بالكوفة ،وعاصر الباطش الجرىء : «أبا مسلم الخراسانى» . وقد نمى خبره اليه ، فاستدعاه واستظرفه ، ودخلت عليه حيلته ، فحسبه أبله أو مخبولا ، وما هو فى الحقيقة بأبله أو مخبول ، ولكنه ساحر بارع يلعب بالعقول .

وقد سجل (أبو الغصن) هذا اللقاء في ذكرياته التى حفظها لنا ابن أخيه طارق بن بهلل ، قال :

لقد نمت بعض أخبارى الى أبى مسلم الخراسانى القائد الجبار الذى هــزم الدولة الاموية ، وزلزل كيانهــا ، وأقام الدولة العباســية ، وثبت دعائمها مكانها وشيد بنيانها ، فامتلأت نفسى منه رعبا وفزعا أول الأمر ثم جريت على مألوف عادتى فى الاستهانة بما لا حيلة لى فى دفعه من الاخطار ، ومقابلته بالابتسام .

لم أكن أعلم لاستدعائه سببا ، فلما بلغت مكانه علمت أن صديقى (يقطين) قد سمع (أبا مسلم) يذكرنى بالخير فى أحد مجالسه ، ويتنادر بما أذاعه بعض الاغنياء عنى من ضروب الغفلة .

فلم يكد يتبين شــوقه الى لقائى ، حتى أفضى اليــه بمكانى ، فأمر أبو مسلم باستدعائى اليه ، فاعتصمت بالحذر ، وتظاهرت بالبله .

ولم أكد أرى صاحبى (يقطين) مع أبى مسلم ، وليس معهما ثالث ، حتى التفت اليه متبالها ، وسألته متغابيا : أيكما أبو مسلم يا (يقطين) ؟

فانخدع فى أمرى أبو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته ، واستغرق فى الضحك من بلاهتى .

وهكذا ضمنت الفوز فى البعد عنه ، والنجاة من صحبته .

وقد ذاع صيت (أبى الغصن) ونبــه ذكره فى أوائل القرن الثانى من الهجرة . وأعجب الناس بما سمعوا به من طرائفه وملحه ، ثم دفعهم اعجابهم به الى أن خلعوا لقبه على كل دعابة مستملحة ، ثم أضافوا اليه ، على مر الزمن ، جمهــرة كبيرة من طرائف غــيره من المبــدعين ، فاختلطت بفكاهاته ، وتعذر التمييز بين الاصل والتقليد .

ولم يلبث (جحا) أن أصبح علما على فن من فنون الفكاهة الشعبية ، بعد أن كان علما على شخص بعينه من أفذاذ الناس .

ثم ظهر الأســتاذ (نصر الدين) التركى فى القرن الثــامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

وقد ولد فى أحد بلاد الاناضول ، وكانت (سيوى حيصار) مسقط رأسه .

وقد عاصر (تيمور لنك) ، وذاع صيته ، وراجت فكاهاته ، وحول الناس لقبــه من (خوجة) الى (جحا) ، لتقــارب الاسمين ، وتشــابه الشخصين .

ومهما نغفل من الشخوص الجحوية، وما أكثرها فى بلاد العالم فاننا لا نغفل (تل) جحــا الالمانى ، الملقب (بمرآة البومة) وهو معــاصر لجحا التركى ، ويكاد يكون نسخة مكررة له ، ان لم يكن هو .

وقد ولد (جحا) الالمــانى فى مدينة (كنيت لينجن) . ومات عام ١٣٥٠ م وقد أطلق عليه لقب : مرآة البومة ، لأن البومة – على الرغم من اجماع الناس على استنكار صورتها – لا ترى فى المرآة الا وجها طبيعيا لا يعاب .

والطرائف المنسوبة الى (جحا) فى أى بلد من بلاد العالم تمثل ، أكثر ما تمثــل ، ألوانا من آراء منتحليهــا ، وروح الدعابة الاصــيلة فى نفوسهم .

لم يسلم جحا من اتهامه بالغفلة حينا ، والبله أحيانا . ولقد افتن الناس فى نسبة الكثير من الأقاصيص التى تصوره فى صورة غافل معتوه، وينطبق عليه ذلك الوصف الكاريكاتيرى البارع ، الذى رسم به الجاحظ أعجب نموذج للذاهل الحالم ، وألصقه بكيان النحوى ، ثم جاء من بعده ، فألصقوه بفيلسوفنا العربى الحالم ، وتمثلوه كما تمثل الجاحظ « كيان » : يسمع غير ما يقال ، ويكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ . وقد نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :

تقول له : زيد ، فيكتب ، خالدا ويقرؤه ، عمرا ، ويفهمه ، بكرا !

وهى غفلة ، يكاد يتسم بها كل مفــكر عميق ، اذا حصر ذهنــه فى فكرة بعينها ، وليس مثل «نيوتن» ببعيد عن الاذهان ، حين ألقى بساعته فى ماء يغلى ، وأمسك بالبيضة ، وهو يحسبها ساعته ، ليرقب نضجها وشيها !

ولعل هــذا المثل يفسر لنــا كيف حمــل الناس كثيرا من الطرائف والدعابات الجحوية على غير محملها ، وفهموها على غير وجهها .

ومهمايكن من أمر ، فقــد كان (أبو الغصن – جحا) يؤثر التبــاله والتغافل وتنطوى فى أعماقه نفس صافية راضية مبتهجة . وكان أسلوبه الرائع يفيض من اشراقه ومرحه ، على حقائق الحيــاة المرة ، فيكسوها من ألوانه الزاهية جدة واشراقا .

أما (تل) جحا الألمان ، فقد ميزه بعض الباحثين بقسط موفور من الغفلة ، كما حلا لغيره أن يعزو اليه قليلا من الخبث واســتدل بعضهم على

ضيق ذهنه وموفور غفلته بما يؤثر عنه من المقالات فى تطبيق ما يسمع حرفيا ، والوقوف عند مدلول للفظ الحرفى غير معنى بما تنطوى عليه فى أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية ۰ وافتن المتخيلون فى نسبة كثير من المفارقات فى هذا الباب ، تمثل أكثر ما تمثل ، ألوانا من آراء متخيليها وروح الدعابة الاصيلة فى نفوسهم ؟

ولكن أى الشخوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات ؟

ومن أبرع ما قرأناه فى الدفاع عن بلاهة جحا ، قول ناقد ألمانى :

« ان جحا كان فلاحا ذكيا ، مستقيم الفطرة ۰ وانه لم يلجأ الى التشبث بحرفية ما يلقى اليه من حديث الا رغبة فى السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون اخفاء ما يضمرون من احتقار لأمثاله من الفلاحين « حين ذاك » ، ويستدلون على ذلك ـ فيما يستدلون ـ بالقصة التالية :

سأله سائل : ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة ؟

فقال له : سر فى طريقك !

فحسبه لم يسمع ، فأعاد عليه السؤال بصوت مرتفع ۰

فأجابه الاجابة الاولى نفسها ، فغضب الرجل وحسبه يهزأ به ، فصرخ فيه : أجب عن سؤالى أيها الغبى !

فقال له : سر فى طريقك !

فتركه الرجل ومشى فى طريقه ثائرا يكيل له اللعنات ۰ ولم يكد يبتعد عنه قليلا حتى صاح فيه أن يتمهل ، ليلقى اليه بكلمة !

فوقف الرجل متعجبا من غرابة أطواره : وسأله :

ماذا تريد ؟

فقال له فى هدوء الفيلسوف :

اذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين !

فأدرك الرجل أن جحا كان على صواب، فلم يكن فى وسعه أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة ، قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطواته !

صديقي جحا ، كما عرفته وأحببته :

تفاؤل دائما :

هذه خلاصة الفلسفة الجحوية . وهى فلسفة تخلق العجائب فى كل شىء .

ولقد كانت هذه الفلسفة هى السياسة العليا ، لدولة انتصرت فى الحرب الماضية ، وما زالت هى فلسفتها الى اليوم . ولقد عشت مع جحا وخالطته زمنا طويلا . وما زلت أخالطه . وعرفنى وعرفته . فتعلمت على يديه أجل الدروس ، وما لم أتعلمه على يد غيره .

وجحا لايعرف البكاء ، فهو يرى البكاء نوعا من الضعف يسلم الانسان الى الهموم والاحزان ، ويرى أن التفاؤل كفيل بايصال الانسان الى غاياته وأهدافه وحسبكم من جحا أنه يرى أن الدنيا لا تستحق منا هذا العناء من التشاؤم والطيرة ومحالفة الهموم ، بل تحتاج منا الى أن ننظر اليها دائما متفائلين .

دولية جحا :

وجحا شخصية دولية ، وعنصر هام فى كل دولة من الدول ، شرقية كانت أو غربية . وتكفى دولية جحا ، للتدليل على أهمية شخصية .

فبينما نجد « جحا العرب » يتمثل فى شخصية أبى الغصن ، نجد « جحا تركيا » يتمثل فى شخصية « نصر الدين خوجة » . على حين نجد فى فرنسا من الشخوص الجحوية دى كراك ، ودى لاباس ، وميشيل موران .

ونجد فى مرسيليا وحدها ، بوتاس ، وكالينو ، وماريوس .

ونجد فى باريس ، دوق دى سان سيمون ، ونجد أرتين فى بلاد الأرمن ، وكميل سيمون فى لندن ، وسن يات فى ايرلنده ، واندولوس فى اسكتلندة ، ودافيد فى جنوب غربى انجلترا ، وسان جورج فى انجلترا نفسها .

ومن الشخوص الجحوية الشرقية الظريفة ، طلحة الفارس ، والشيخ تشللى الهندى وخوش خال خان الافغانى .

وفى صنعاء وحدها ، على بن زايد ، وحميد بن منصور ، وأحمد المعطرى ٠

نصوص الأدب :

ويمكننى أن أصارحكم بأن معظم الروايات التى تستند الى الشخوص الجحوية الاجنبية انما هى فى الواقع مسروقة من تراث أدبنا العربى ، وهذا هو رأيى دون تعصب ٠

ويمكننى أن أصرح مستشهدا على صدق رأيى هذا بما قرأناه فى احدى الصحف الاسبوعية المعروفة من أن « جحا انجلترا » الحديث (برنارد شو) سئل عن حاله فقال ما خلاصته :

لم يجد « برنارد شو » من يتحدث اليه غير برنارد شو !

وهذه سرقة واضحة ظاهرة ، فقد سئل جحا العربى ذات مرة : لماذا اعتكف عن الناس ؟ فقال :

بحثت فيهم عمن هو أذكى من جحا فلم أجد الا جحا نفسه ٠ فجلست اليه ليحل لى مشاكلى !

سرقة شرقية :

على أن سرقة أفكار جحا العربى لم تكن مقصورة على جحا الغرب ، بل سرقها كذلك نصر الدين خوجة التركى ،واستولى عليها ظلما وعدوانا:

فقد أعلنت احدى المجلات التركية عن مسابقة ، يفوز فيها بجائزة ، كل من يقوم بتأليف رواية عن نصر الدين خوجة ويذكر كل قصة وردت عنه ٠

فكان القراء أذكى من ناشر الاعلان ، فقد سرقوا كثيرا من قصص أبى الغصن ، وأسندوها الى جحا التركى !

الحوادث الجحوية كثيرة :

والحوادث الجحوية أكثر من أن تحصر ، ويكفى أن نطوف بكم قليلا، لنقطف لكم بضع زهرات مشرقة من هذه البساتين الرائعة المثمرة ، وننبه الى أنه أضيفت الى هذه الحوادث بعض فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين، من أمثال :

هبنقة ، وفند ، وطفيل ، وأضرابهم . ونسوق هذه الأمثلة اللطيفة عن فلسفة جحا .

فى عيادة طبيب :

شكت زوجة حجا اليه آلما فى بطنها ، وأمرته أن يستدعى لها الطبيب. فلما خرج من باب المنزل أشرفت عليه من الدور الثانى ، ونادته ، وأفهمته أنها شفيت ، ولا داعى للطبيب !

ولكنه فى ذهوله ، والفلاسفة حالمون، توجه الى عيادة الطبيب ، ولم يتذكر شفاء زوجته ، الا بعد أن وقف بين يدى الطبيب ، فسأله : لماذا حضرت يا جحا ؟ فأجابه على الفور : لقد شكت زوجتى ألما فى بطنها ، وأمرتنى أن أستدعيك ، فلما خرجت من باب المنزل أطلت على وأخبرتنى أن لا داعى لحضورك ، فقد شفيت !

وقد حضرت اليك الآن لأخبرك بهذا حتى لا تكلف نفسك مشقة الحضور الينا !

ذكاء جحا :

وطوف ذات مرة فى الصحراء ، فصادف رجلا بشع الهيئة ، أمسك به ، وأراه جثث موتى على قمة الجبل ، ورءوسهم مفصولة عن أجسامهم فسأله جحا : ما هذا :

فقال الرجل : هؤلاء كل واحد منهم طلبت منه أن يجيبنى عن أربعين سؤالا بجواب واحد لايتغير، فعجزوا جميعا ، فقتلتهم! فهل عندك الجواب، أو تقتل معهم ؟

فقال جحا : عندى هذا الجواب ، وسل ما بدا لك .

فظل يسأله السؤال تلو السؤال ، وجحا يجيب باجابة واحدة ، حتى أنهى الأربعين سؤالا ، ولم تكن اجابة جحا الا كلمة هى (لا أدرى) ، فأخلى سبيله !

كلمة واحدة :

وسئل جحا ذات مرة : كم عمرك الآن ؟ فقال : أربعون عاما ، فقيل له : انك قلت لنا هذا من سبع سنوات مضت . فأجاب على الفور : وهل يغير الحر كلامه ؟

يوقف الزمن :

وسئل مرة ، كم سنة بينك وبين أخيك ؟ فقال سنة واحدة · فاذا مضى هذا العام تساوينا فى السن عند استقبال العام الجديد !

المذهب الجحوى :

والمذهب الجحوى ـ كما قدمت ـ مذهب سافر فلسفى فى الوقت نفسه ،وليس أدل على ذلك من (تل أويلن اشبييل) الذى كان يحمل فى يده بومة ، وفى الاخرى مرآة ، واشتهر بهذا ·

ولهذا تحليل غريب كما أراه ، فهو يشير الى أن البومة هى المخلوق الذى يجمع على التشاؤم منه العالم البشرى كله · فاذا نظرت هذه البومة فى المرآة ، فلا تجد صورتها الا مخلوقا طبيعيا عاديا ، بل قد ترى فى صورتها حسنا وجمالا تدل به على خلق أوفى !

حاجتنا الى فلسفة جحا :

على أننى أنصح لكل عربى أن يتأسى بفلسفة جحا ، ذلك بأنها السبيل الوحيد الذى سيهزم أمامنا الصعاب ، ويزيل العقبات · فاذا وجدت هذه النصيحة آذانا مصغية ، فستكون خير هدية أقدمها لصديقى جحا ، كما عرفته وأحببته ·

فن الكتابة :

ليست الصعوبة ، التى تعترض الكاتب أو الشاعر ، فى أن يكتب أو ينظم فى أى موضوع شاء ، بل الصعوبة كلها فى أن يقول ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع ·

هكذا يقول بعض كتاب الانجليز وأساطين مدرسى الانشاء · وقد استشهدنا بهذا القول فى مقدمة ديوان ابن الرومى ، حين عرضنا للكلام على دقته التى امتاز بها فى شعره ، كما استشهدنا بقول الشاعر العربى :

وفضلنى فى القول والشعر أننى أقول على علم ، وأعلم ما أعنى

وهذه هى الغاية الجليلة التى يجب أن يفوق اليها رام سهامه ، ويجعلها نصب عينيه· وهى الغاية التى نريد أن نبين الطريق المؤدية اليها،

تاركين الكلام الى أساتيذ التربية وكبار المنشئين الذين قضوا حياتهم فى تدريس هذا الفن الجميل، ملخصين آراءهم حينا، ومقتبسين بعض عباراتهم حينا آخر رغبة فى الاختصار الذى تحتمه علينا هذه المقالات الموجزة ٠

والى القارىء خلاصة هذه الآراء :

أول ما نرمى اليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب الانشاء خطة واضحة ، ونبين له منهاجا يترسم خطاه ، ليصل الى غايته رأسا ، دون أن يضيع وقته عبثا فى تمرينات متشعبة وغير مجدية ٠ فضلا عن كونها حجر عثرة فى طريقه ، وحائلا دون كتابته الصحيحة الرشيدة المنشودة ٠

والواجب أن نعمل على أن نثبت أقدامهم ، وتمكنهم من الكتابة التى تجمع بين الرشاقة والقوة ، وتكون ـ الى ذلك ـ خالصة من الشوائب ، دقيقة التعبير ، حسنة الاداء ٠

وللوصول الى هذا ، سلوك طريق عملية واحدة ، هى الاكثار من التمارين الانشائية الى حد قد يظنه البعض غير ضرورى ، أو يرى فيه اسرافا لا داعى اليه ، اسرافا فى الجهود ، واسرافا فى الزمن ، ولكن سلوك هذه الطريقة الطويلة ضرورى لا مناص منه ٠ وليس طول الطريق دليلا على أن الطريق الاخرى التى هى أقصر منها خير منها ٠

ألا ترى الى طالب العود أو البيان (البيانو) ؟

قل لى بربك : كم عاما أمضى فى سبيل غايته ؟

وكم من الزمن مر عليه حتى وصل الى درجة الاتقان أو ـ على الاصح ـ حتى دنا من درجة الاتقان ؟

واذا كان ذلك على هذا النحو فما بالك بمن يتطلع الى اتقان الكتابة والتصرف فى فنون القول ؟

ما بالك بمن تطمح نفسه الى مثل هذا المطلب الوعر ؟

وكم من السنين ، يجدر به أن يقضيها ، حتى يصل الى غايته ؟

« ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر » ٠

ما بالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان ، ويسمو بأسلوبه عن الركاكة واللبس والتعقيد ، وما الى ذلك من عيوب الكتابة وصعاب اللغة، ويجمع الى ذلك ذوقا فنيا عاليا ؟

أضف الى ذلك أن من يريد أن يتعلم فن الانشاء ، انما هو ـ على

الحقيقة يريد أن يتعلم كيف يفكر ؟ فهو فى بحثه عن الكلمة الصحيحة الفصيحة ، وتخيره الأسلوب الدقيق الأداء ، الموفق التعبير ـ يسلك كثيرا من شعاب القول وفنونه ، ويمر بمنعرجاته ومنعطفاته الكثيرة ، باحثا منقبا عن الفكرة المنشودة ، متخيرا من بينها أمثل طريق .

وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب ، ويميز بين الحسن والاحسن . وكلما سار فى هذه الطريق تفتحت أمامه كنوز اللغة وفرائد المعانى ، وكان مثله كمثل (سول) ، ذلك الفتى الذى تحدثنا الاساطير ، أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه وعيرانه فظفر بملك عظيم !

تمارين الانشاء :

أما تمارين الانشاء فيجب أن تكون قصيرة فى أكثر الاحيان وأنا ألحف فى الرجاء ، أن يعنى حضرات المدرسين بهذا الامر كل العناية ، وأن يتجنبوا غالبا المقالات الطويلة ، فهى منهكة لقواهم، مضيعة لوقت المدرسين بلا طائل . وهى ، الى ذلك ، تعود الطلبة أن يجمحوا كثيرا ، وربما عن جوهر الموضوع ، كما يحدث ذلك أحيانا ، ويبعدوا عن أساسه . وشر عيوب الكتابة الشطط .

أضف الى ذلك أن التطويل يعود الطالب الاهمال فى صوغ عباراته بدقة ، كما يعوده الاهمال فى تخير الالفاظ ، فلا ترى له الا كتابة مفككة الأوصال ، ركيكة التعبير . على حين أنه لو كتب موضوعا قصيرا ، أحسن تنسيقه ، وعنى بأدائه خير أداء .. لكان ذلك أجدى عليه ، وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب ، فى عدة صفحات ، قد رصفت فيه الكلمات رصفا ، بلا روية ولا احكام .

ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب الى الطريق التى يسلكها ، ثم يدع له وحده تخير الجمل وصقل الاسلوب .

أما الطالب ، فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعانى ما يلائم تفكيره ويتناسب مع ميوله ومداركه ، حتى يجيد أداءه .

ويجدر بالمدرس أن يصحح التمارين الانشائية فى الفصل ، أمام التلاميذ كلما كان ذلك ممكنا . فان ذلك أعون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله . ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عال ، وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة فى نقط الموضوع ، وتبين وجهات الخطأ والصواب فيه . فتتاح للطلبة فرصة الانتقاد والاخذ والرد والمناقشة . ويمتلىء الدرس حياة ونشاطا . ويتعود الطلبة الكلام والمحاجة منذ حداثتهم .

حي بن يقظان [1]

نشأة المؤلف :

مؤلف هذه القصة الخالدة ، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد ابن طفيل الاندلسى . وهو ينتسب الى قرطبة ، واشبيليه ... ويدعى تارة بالقرطبى ، وتارة بالاشبيلى . ويعزى الى قبيلة قيس المشهورة

وكانت ولادته فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى . وقد اشتغل بالطب فى غرناطة ، ثم أصبح قاموس هـذه المقاطعة . وما لبث أن ذاع صيته فى الآفاق ، وعرف فضله بين أفذاذ معاصريه ، وأصبح علما من الاعلام ، بعد أن اتصل بأبى يعقوب ، عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) . وصار أصفى أصفيائه ، وأخلص سماره وندمائه .

أبو يعقوب وثقافته :

أما أبو يعقوب هذا ، فهو يوسف بن عبد المؤمن ، وقد أسس أبوه دولة الموحدين ، ثم خلفه ولده أبو يعقوب على (سبتة ، وطنجة) . واتخذ ابن الطفيل كاتم سره وأنيسه وطبيبه ولم يخالف له رأيا ، ولم يرد له مشورة .

وكان أبو يعقوب هـذا مثال الوالى المثقف الناضج ، وقد اختار حاشيته وأصفياءه من أعيان المفكرين فى عصره .

قال المراكشي يصف أبا يعقوب :

(وكان أبيض، تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه، أفوه ، أعين ، الى الطول أقرب ، فى صوته جهارة ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الالفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس بالطريقة التى تكلم بها العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام .

---

(١) طالع هذه القصة في مجموعة (قصص عربية) التى اخرجها الاستاذ (كامل كيلانى).

وصرف عنايته الى ذلك ·· أيام ولايته على اشبيلية فى حياة أبيه · ولقى رجالا من علماء اللغة والنحو والقرآن ·

وكان أبو يعقوب ـ كما يقول المراكشى ـ شديد (الملوكية) ، بعيد الهمة ، سخيا جوادا ، أستغنى الناس فى أيامه ، وكثرت فى أيديهم الاموال هذا مع ايثار للعلم وتعطش اليه مفرط ·

ثم قال : (وكانت له مشـــاركة فى علم الادب ، واتســـاع فى حفظه اللغة ، وتبحر فى علم النحو · ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة · فأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منهـــا قريب « مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموى ·)

الى أن قال : (ولم يزل يجمع الـكتب من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ــ وخاصة أهل علم النظر ــ الى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك قبله ، ممن ملك المغرب) ·

فضل ابن الطفيل :

قال المراكشى :

(وكان ممن صحبه من العلماء ، أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين · كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة · قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفلة ورأيت لابى بكر هذا تصـــانيف فى أنواع الفلســـفة من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك .

فمن رسالة الطبيعة رسالة سماها ، رسالة حى بن يقظان ، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الانسانى على النحو الذى يراه · وهى رسالة لطيفة الجرم ، كبيرة الفائدة فى ذلك الفن · ومن تصانيفه فى الالهيات رسالة فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله · وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره الى العلم الالهى · ونبـــذ ما سواه · وكان حريصا على الجمع بين الحـكمة والشريعة ، معظما لامر النبوات ظاهرا وباطنا · هذا مع اتساع فى العلوم الاسلامية ·

وكان أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له : بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياما ليلا ونهارا ، ولا يظهر ، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر ·

مثال من شعره :

وقد اختار المراكشي من شعر ابن الطفيل قوله في الزهد :

يا باكيا فرقة الاحباب عن شحط
هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد في طين الى أجل
فانحاز علوا ، وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا
اظنها هدنة كانت على دخن
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما
فيالها صفقة تمت على غبن

ابن الطفيل وابن رشد :

وكان لابن الطفيل الفضل في تقديم ابن رشد الى السلطان أبي يعقوب . وقد وصف ذلك المراكشي ، فقال :

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب العلماء من جميع الاقطار ، وينبه عليهم ، ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبه على ابن الوليد محمد أحمد بن محمد بن رشد • فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم •

وكان أبو الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو و « أبو بكر بن طفيل » ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثني علي ، ويذكر بيتي وسلفي . ويضم بفضله الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري • فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين ــ بعدأن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي ــ ان سألني عن رأي الفلاسفة في احدى المسائل التي اختلفوا فيها ، فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة • ولم أكن أدري ما قرر معه ابن الطفيل ، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء • فالتفت الى ابن الطفيل ، وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ماقاله أرسطوطاليس وافلاطون وجميع الفلاسفة• فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن ، من المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت • فعرف ما عندي من ذلك • فما انصرفت حتى أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب •

وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما . فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة

أرسطوطاليس ، أو عبارة المترجمين عنه • ويذكر غموض أغراضه ، ويقول :

لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها ، بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس • فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل • وانى لأرجو أن تفى به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك ، وقوة نزوعك الى الصناعة • وما يمنعنى من ذلك الا ما تعلمه من كبر سنى واشتغالى بالخدمة ، وصرف عنايتى الى ما هو أهم عندى منه •

قال أبو الوليد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتاب الحكيم أرسطوطاليس •

وقد رأيت لأبى الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم فى جزء واحد ، فى نحو مائة وخمسين ورقة • وله ترجمة بكتاب الجوامع •

وقد لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء ، والعالم ، ورسالة الكون ، والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحس والمحسوس •

ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط ، وهو أربعة أجزاء •

وجملة القول انه لم يكن فى بنى عبد المؤمن — من تقدم منهم وتأخر — ملك بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا .

مكتبة أبى يعقوب :

رأى القارىء مما أثبتناه ما ينبئه عن شغف أبى يعقوب بأفاضل العلماء ، وأفذاذ المفكرين ، أمثال : ابن طفيل ، وابن رشد ، كما رأى هذا السلطان المثقف فى تنشيط الحركة العلمية ، وبعث الآراء الفلسفية • ونحب أن نقتبس مثلا آخر مما رواه المراكشى فى كتابه : (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) ليتبين منه مقدار ولوع هذا السلطان باقتناء نفائس الكتب ، وشغفه بجمعها ، وتحايله على ذلك ، حتى اجتمع له منها شىء كثير فهو — كما يقول المراكشى — لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء — وخاصة أهل علم النظر — الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ، من المغرب •

والى القارىء ما يقوله (المرانى) • وكان يملك مكتبة حافلة بروائع الكتب ، كما أثبته المراكشى فى كتابه — قال المرانى :

(انتهى خبر هذه الكتب الى أمير المؤمنين (أبى يعقوب) فأرسل الى دارى ، وانا فى الديوان ـ لاعلم عندى بذلك ـ وكان الذى أرسله (كافور الخصى) مع جماعة من العبيد الخاصة . وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار، والا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده ـ ومن معه ـ ان نقص أهل البيت ابرة فما فوقها .

فأخبرت بذلك ـ وانا فى الديوان ـ فظننته يريد استصفاء أموالى فركبت ـ وما معى عقلى ـ حتى أتيت منزلى ، فاذا الخصى (كافور الحاجب) واقف على الباب ـ والكتب تخرج اليه ـ فلما رآنى وتبين ذعرى ، قال لى:

ـ لابأس عليك .

وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم على ، وانه ذكرنى بخير ، ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى ، ثم قال لى :

سل أهل بيتك : هل راعهم أحد ، أو نقص شىء من متاعهم ؟ .

فسألتهم فقالوا :

ـ لم يرعنا أحد ، ولم ينقصنا شىء .

وقالوا : جاء أبو المسك كافور ، واستأذن علينا ـ ثلاث مرات ـ فأخلينا له الطريق ، ودخل هو بنفسه ـ الى خزانة الكتب،فأمر باخراجها).

فلما سمعت هذا القول منهم ، زال ما كان فى نفسى من الروع .

قال المراكشى : وقد ولوه ـ بعد أخذهم لهذه الكتب منه ـ ولاية ضخمة ماكان يحدث بها نفسه :

ذلك مثل نجتزىء به ، لنبين افتتان أبى يعقوب باقتناء الكتب النادرة ، وعنايته بتقريب العلماء اليه ، وحرصه على انماء روح البحث ، وتنشيط العلماء .

وفاة ابن طفيل :

وهكذا قضى ابن طفيل حياة مباركة ، حافلة بالدرس والتأليف . ولم يأل جهده فى تشجيع أعلام عصره وتقديمهم الى السلطان . وقد رأى القارىء أثر ابن طفيل فى تشجيع ابن رشد ، والاخذ بناصره . وقد دارت بينهما مراسلات نفيسة فى مراجعة كتاب الكليات ، ذلك الذى ألفه (ابن رشد) .

وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ما يلي :

(ولابن رشد مقالة أيضا في اتصال العقل بالانسان : مراجعات ومباحثات بينه وبين أبي بكر بن طفيل) ٠

ومات ابن طفيل عام ٥٨١ هـ ٠ (١١٨٥ - ١١٨٦ م) في مراكش ٠ واحتفل معاصروه بتشييع جنازته ٠ ومشى فيها السلطان ٠ وظفر بما لم يظفر به الا القلائل ، فقد قدره أهل عصره - كما قدرته العصور التالية - حق قدره ٠

أما مؤلفاته الاخرى ، فلسنا نعرف عنها الا رسالتين في الطب ٠ على أن قصة (حي بن يقظان) كافية وحدها في نباهة شأنه وخلود ذكره على مر الأزمان وتعاقب العصور ٠

أثر ابن طفيل في عالم القصة :

ولو أغفلنا فلسفة ابن طفيل كلها ، وبراعته الفذة في تجلية غوامض العلم وتحليل النزعات الانسانية ، وشرح المذاهب الفكرية الدقيقة ، ثم نظرنا الى أثر قصته في القصص العالمي ٠٠ لتملكتنا الدهشة ٠ فان (حي ابن يقظان) قد أرضعته ظبية - كما في قصته - فلم يجد صاحب قصة (سيف بن ذي يزن) أمامه الا اقتباس هذه الفكرة في مستهل تلك السيرة المعجبة ، وسار على غرار ابن طفيل ، فأختار لسيف بن ذي يزن - بطل قصته - ظبية ترضعه ، ثم ارتقى المؤلف ٠٠ من الظبية ٠٠ الى جنية ، تعطف عليه ، فترضعه ، فيكسب من لبنها شجاعة الجن وقوتهم .

وقد أوحت هذه الفكرة الى مؤلف (طرزان) أن يختار لبطل قصته قردة ، يترعرع وينشأ بينها ، ويحاكي أفعالها ٠٠

فلما جاء (دانيل ديفو) القاص الانجليزي المشهور اقتفى أثر ابن طفيل ، وسار على منهاجه في تأليف (روبنسن كروزو) ، الذي عاش وحده في جزيرة نائية مقفرة ، ولم يفته أن يختار لبطل قصته رفيقا يسعده في آخر مقامه في الجزيرة ، وهو (جمعة) ٠ كما اختار ابن طفيل (أسال) رفيق ابن يقظان ، الذي التقى به في المرحلة الاخيرة من القصة .

وقد قرأنا ما يعزز رأينا هذا في المقدمة الرائعة التي صدر بها (ليون جوتيه) طبعته الأنيقة لقصة (حي بن يقظان) اذ يقول :

وان قارىء هذه القصة (حي بن يقظان) ليرى فيها روح ألف ليلة

وليلة ، حيث اتخذت أسلوبا فلسفيا صوفيا عاليا فى كثير من مواقفها المعجبة كما يرى فيها ــ بالاضافة الى ذلك ــ أصل (روبنسن كروزو) التى كتبت على غرارها ، ولم يفت مؤلفها أن يقتبس شخصية (جمعة) ٠

ولا بأس أن نقتبس كلمة موجزة من تلك المقدمة النفيسة ، لنطلع القارىء على رأى أروبى ناضج فى خطر هذه القصة العربية الفذة ، قال (جوتييه) :

(ان القارىء ليدهش ، اذ يرى تعاليم أرسطو مبثوثة فى أثناء هذه القصة ، وقد امتزجت بألوان بارعة من الصوفية العالية ، والآراء الفلكية والجغرافية والفلسفية ، فى أسلوب عصرى حقيق بالاكبار ٠

وقد أبدع المؤلف فى أمثلته التى عرض بها الى دقائق التشريح ، وتحليل التربة والمناخ ، واكتناه أصول الدين والنظم الاجتماعية ، والرموز البارعة التى عبر بها عن دقائق فى فن مؤلفها ، وبراعة أسلوبه الجامع ، وابداعه فى تجلية غوامض الفلسفة وتدرجها ونمائها واتجاهاتها ، وجمع أطرافها ، ولم أشتاتها المبعثرة ، فى نسق علمى أخاذ ، يتجلى للقارىء فى ذلك القصص الطبيعى الجذاب) ٠

أثر قصة روبنسن كروزو :

على أن قصة (روبنسن) ، تلك التى وضعها مؤلفها على غرار قصة ابن يقظان ، قد أوحت الى كثير من القصاصين أن يحاكوها ، ويسيروا على نهجها ٠ فلنجتزىء منها ما يلى :

(وفى عام ١٧١٩ م ٠٠ شرع (ديفو) فى تأليف القسم الاول من (روبنسن كروزو) وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره ٠

وسار على نهجه كثير من الكتاب ، ولم ينجح ــ من بينهم ــ غير كتاب (روبنسن سويسرا) أو الاسرة السويسرية ، ذلك الذى ألفه (رودولف نيس) أستاذ الفلسفة فى جامعة برن ، وقد اختار لقصته أسرة ، عددها ستة أشخاص ، ينجون من الغرق ، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة ، ٠٠ يسودها الوئام والحب ٠٠ فتتغلب على العقبات والمتاعب) ٠

ابن يقظان وجلفر :

ولو شئنا أن نتقصى أثر القصة العربية ، التى أبدعها ابن طفيل فى روائع القصاصين لامتد بنا نفس القول ، واحتجنا الى رسالة مستفيضة٠

فلنجتزىء بالاشارة السريعة الى أثر قصاصنا (ابن طفيل) فى الكاتب العبقرى (سويفت) ، مؤلف جلفر ، وقد أظهرها مؤلفها عام ١٧٢٦ م • فى مدينة لندن ، فأحدثت دويا هائلا وآثارا بعيدة المدى :

ان القارىء الباحث ليدهشه ما يراه فى قصة جلفر من وجوه الشبه • حتى ليجزم بأن (سويفت) كان يسبح فى كثير من الأجواء التى سبح فيها ابن طفيل • فاذا نظرنا الى تلك المحادثات المستفيضة التى دارت بين جلفر وبين العمالقة – فى الجزء الثانى – وبين جلفر والجياد الناطقة فى الجزء الرابع – وهى محاورات تدل على سخط صاحبها على الجنس الانسانى ونقمته من ضلالهم وأفانين غرورهم – رأيناه تبسيطا ، وشرحا لنغمة (ابن يقظان) وسخطه على ضلال الجنس الانسانى •

واذا نظرنا الى فطنة ابن طفيل الى أهدى أسلوب فى تعليم لغة أجنبية •• الاسلوب المباشر وهو •• فيما نعلم •• أول من كشف لنا الستار عنه – وجدنا (سويفت) يلجأ فى قصته الى تقرير هذا الاسلوب نفسه فى تعلم جلفر لغات الاقزام ، والعمالقة ، وسكان الجزيرة الطيارة والجياد الناطقة •

انظر الى قول ابن طفيل :

(ثم سمع – ابن يقظان – صوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد مثلها من شىء (من أصناف الحيوان) •

وانظر الى قول سويفت على لسان جلفر :

(ثم دار بين الجوادين حوار طويل ، هو أقرب الى أن يكون حوار فيلسوفين ، يريدان أن يتعرفا ظاهرة غريبة ، لا عهد لهما برؤيتها من قبل) •

وانظر الى دهشة جلفر من لغة الأقزام والعمالقة وسكان الجزيرة الطيارة • فأنك واجد ما يحقق هذا الرأى ، ويقنعك بصدق ما ذهبنا اليه

أما مشكلة الثياب فقد ظهر فيها توخى (سويفت) نهج ابن طفيل ظهورا بينا •

فانظر الى قول ابن طفيل :

(ونظر – ابن يقظان – الى آشكال – آسال – وتخطيطه ، فرآه على صورته وتبين له أن المدرعة التى عليه ليست جلدا طبيعيا ، وانما هى مثل لباسه هو) •

فاتخذ (سويفت) من هذه اللفتة البارعة نواة لقصيـــته فى بلاد العمالقة ، كما استفاض فى تبسيط هذه الفكرة وتحليلها فى قصة جلفر مع الجياد الناطقة فهو يقول فى الاولى :

(وما كاد (العملاق) يرانى حتى دهش وأخذ قشةصغيرة منالارض ـ فى حجم العصا التى نتوكأ عليها فى بلادنا ورفع بها أطراف ثوبى ، وهو يحسبه غطاء وهبته لى الطبيعـة ، كما تهب الى الطيور الريش ، ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح • ثم نادى خدمه وقال لهم فيما فهمت من دهشته وشارته :

(انه لم ير حيوانا يشبهنى فى حقوله !)

وقد شغلت مسألة الثياب هذه أرحب مكان فى نفس (سويفت) • فلم يكتف بتقريرها فى هذا الموضع من كتابه ، بل عاد اليها فى الجزء الرابع حين عرض لحوار الجوادين الناطقين ، وتناولها فى هـــذه المرة مسهبا مستفيضا فى شرحها وتحليلها ، فقال :

وتكنفنى هذان الجوادان ، وأجالا أبصارهما فى ، وظلا يطيـــلان التأمل فى وجهى ويدى زمنا يسيرا •

ودنا منى أحد الجـــوادين ـ وهو الازرق المرقش ـ فرفع رجليه الاماميتين الى قبعتى ، وعبث بها ، فنزعتها من فورى • ودهش الجواد الآخر ، وهو الجواد الاحمر حين أمسك بذيل ثوبى ، فرآه غـير ملتصق بجسدى •

الى أن قال :

وظل السادة الجياد حائرين فى أمرى ، وهم يحسبون أن ثيـابى ليست الا جزءا طبيعيا من جسمى • ثم افتضح السر للسيد الجواد بعد ذلك • فقد وقع لى حادث ـ لم يكن فى حسبانى ـ اضطرنى الى الافضاء اليه بحقيقة أمرى •

واني موجزه للقارىء فيما يلى :

لقد أسلفت القول : اننى كنت لا أنزع ثيابى عن جسدى كل ليلة، الا بعد أن أستوثق من نوم كل من فى الدار • فاذا تم ذلكغطيتجسدى بتلك الثياب •

وظللت على ذلك شهورا عدة ، ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان ،

فقد بعث السيد الى ـ ذات صباح ـ بخادمه الجواد الأشقر الصغير ٠ ولما وصل الخادم الى غرفتى دخلها من غير أن أفطن الى حضوره ، فقد كنت مستغرقا فى النوم ٠ وكانت الثياب قد سقطت عن جسدى ـ فى أثناء النوم ـ وكان قميصى مرفوعا ٠ فلم أكد أستيقظ على أثر الضجة التى أحدثها الجواد حتى بدأ الارتباك والقلق على سيماه ٠ ثم عاد الى سيده، فقص عليه ما رآه وهو لا يكاد يبين لاختلاط الامر عليه ٠

وقد رأيت أثر هذا الحادث فى نفس السيد ، حين ذهبت اليه لاحييه ، وأتلقى أوامره . فبدأنى بالسؤال عما سمعه من خادمه عن قصتى ٠ وأخبرنى أن خادمه قد أدهشه منى أن يرانى فى صورتين مختلفتين أشد الاختلاف ٠ فى يقظتى ومنامى ٠ لانه رأى أجزاء بيضاء من بشرة جسمى ، ورأى أجزاء أخرى سمراء قاتمة ٠

وكنت ـ الى هذه اللحظة ـ أخفى سرى عن ذلك السيد وغيره من الجياد ، حتى لاأسلك فى زمرة الأناس الجبناء الملعونين ٠ ولكننى اضطررت الى الافضاء بحقيقة أخرى ـ على الرغم منى ـ بعد أن افتضح السر ٠

ولقد كان من الطبيعى المحتوم أن تظهر الحقيقةالتى حاولتاخفاءها جهدى ٠ فقد بدأ البلى يدب الى حذائى وثيابى من طول الاستعمال ٠ ولم يكن لى بد من الاستعاضة عنهما بغيرهما من جلود الباهو ، أو غيره من الدواب ٠ وكان ذلك كله مؤذنا بافتضاح السر بعد زمن طويل ٠

وقد اضطررت ـ حينئذ ـ أن أخبر السيد أن من عادتى ، وعادة أبناء جنسى ـ من الآدميين ـ أن يغطوا أجسادهم بثياب يصنعونها من صوف بعض الدواب ، بأسلوب فنى خاص ، يحذقه النساج عندنا ، ليستروا بها أجسادهم عن الأنظار ، ويتقوا وطأة الحر والقر ٠

فتعاظمته الدهشة ، واستولت عليه الحيرة مما سمع ، لانه لم يكن يعرف أن أحدا من المخلوقات فى حاجة الى ارتداء اهاب صناعى غير اهابه الطبيعى الذى وهبه الله له ٠

وأردت أن أقنعه بصحة ما أقول ٠ فرفعت شيئا من ثيابى وخلعت حذائى وجوربى ٠ فدهش حين رأى بياض صدرى وقدمى ٠ وأمسك ثيابى بسنبكه ، وظل ينعم النظر ويمعن فى الفكر فيما يراه ، ثم يلمس جسدى ، ويدور حولى حينا فحينا ، وهو لا يكاد يصدق بصره فيما يخبره به ٠

وبعد افتكار طويل ، التفت الى السيد ، وحمحم صاهلا في احترام وأدب واعجاب ، « لست أشــــك فى أنك (ياهو) لاننى لا أدرى فرقا جوهريا بينك وبينه • فالجسمان متماثلان • والوجهوالقدمان لا تختلف الا اختلافا يسيرا • فان الشعر كثيف مرسل على جسد الياهو ، وكذلك جسدك ، لان أغلبه لا يغطيه الشعر ، وأسنانك قصيرة جدا ـ على عكس مخالب الياهو الطويلة • وأنت تمشى على قدمين اثنين على حين يمشى الياهو على أربع » •

ورآنى السيد ـ حينئذ ـ أرتجف من البرد • فرثى لحالى•وأمرنى أن أرتدى ثيابى ، حتى لا يصيبنى سوء •

فشكرت له عطفه على وبره بى ، ثم توسلت اليه أن يعفينى مناطلاق اسم (الياهو) على ، وأظهرت له تقززى وارتياعى وسخطى على هــــذه الدواب الخبيثة التى تتجلى فيها الفظاظة والغلظة واللؤم •

وأقسمت عليه أن يكف عن هذه التسمية المفزعة ، وأنيأمر أسرته وخدمه وأصدقاءه أن يعفونى من سماع هذا الاسم البغيض الممقوت •

ولو أن هذه القصة (قصة حى بن يقظان) قد كتب لها أن تبقى فى اللغة العربية وحدها ، لعددنا ذلك من توارد الخواطر ، ووقع الحافر على الحافر ـ كما يقولون ـ ولكنها ترجمت الى أكثر لغات العالم •

فقد ترجمها (بوكوك) ، وهو من رجال الكنيسة ، الى اللاتينية • ثم نقلها (أشويل) الى اللغة الانجليزية •

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية ، فى (أكسفورد) عام١٧٠٠ • أما ترجمة (جيو أشويل) فقد طبعها فى السابع والعشرين من ينــاير عام ١٦٨٦ فى لندن •

وقد طبعت رسالة (حى بن يقظان) بالقاهرة والقسطنطينية عام ١٢٥٥ هـ •

ثم طبعها (ليون جوتييه) بالجزائر عام ١٩٠٠ م • كما طبعتفى سرقسطة فى هذا العام نفسه •

وترجمها الى الانجليزية ـ عن أشويل ـ كاتب يسمى (ســيون أوكلى) وطبعت فى لندن •

وترجمت الى الهولندية عام ١٦٧٢ ، وأعيد طبعها فى نوتردام عام ١٧٠١ م •

ونقلها عن ـ نسخة يوكوك اللاتينية ـ الى الالمانيـــة بريتوس ، وظهرت فى فرنكفورت عام ١٧٢٦ م ٠

ثم ظهرت ترجمات المانية اخرى عام ١٧٨٣ ، بأقلام كل من أيشهورون، ومونك ، داوبرج . وظهرت ترجمة اسبانية بقلم « فرنسيسكوبوجى » .

وقد ظهرت لها ثلاث طبعات فى مصر : احـــداها بمطبعة الوطن ، وثانيتها بمطبعة وادى النيل ، وثالثتها بالمطبعة الخيرية ٠

وقد ترجمت هذه القصة الى العبرية ٠ وكتب عن مؤلفهـــا كاتب اسبانى « يونس براج » رسالة عنوانها : ابن طفيل ـ حياته وآثاره ـ وقد طبعها عام ١٩٠٠ ٠ ونوه بروكلمان بهـذه الرســالة فى « تاريخ الآداب العربية » ٠

وهنالك قصة فارسية عنوانها « سلامان وأسال » ٠ ألفها «جامى» الفيلسوف الفارسى ، بوحى من قصة ابن طفيل ، التى ترمز الى اشتباك العقل الانسانى بعالم المحسوسات ٠

وقد ترجمت القصة الى الفرنسية ، وطبعت فى باريس عام ١٩٦١م

شعره العام :

عرف الناطقون (بأخوات) الضاد ، الأستاذ « الكيلانى » : نصيرا للأدب العربى يكشف كنوزه المحجوبة وراء الســنين ، ويداب فى هـــذا السبيل ، دءوب المجاهد العزوم يزاحم ليله بنهاره ٠

فلقد أذاع فى السنين العشر الأخيرة ، أدبا من أدب العـربية ، كان معروفا فى الناس باسمه ، أو رسمه . فنشره كاملا ، وجـــلاه شاملا ، واطلع الناس منه على الزهر المنثور فى الروض المنضور .

أما المجالس الادبية ، فقد عرفت الاستاذ «الكيلانى» محدثا لبقـــا فما حل مجلسا الا أفاض فيه من طبعه وفنه : صبغة أدبية جلواء ، يعينه على ذلك استذكاره ـ وهو القارىء للأدب العربى ـ لكل قارىء فى الأدب العربى من روائع وطرف فلا يتناقل أهل المجلس أحدوثة فى أدب ، أو خلق ، أو فكاهة ، الا مهد لهـــا ، وجال بقدحه فيها ، فتـــذكر نظائرها وأشباهها ، مناقدا هذه ، مستملحا تلك ، مسترسلا فى موازنة ، ملؤها الدقة والوثاقة والاتزان .

والاستاذ الكيلانى نقيب الأدباء ، صــاحب نكتة بارعة . وهو فيها

قوى العارضة ، مرهوب الجانب ، متوقد البديهة . وليست النكتة على لسانه عملا يتزلف اليه ، حتى يزلف له . وانما عنده طرف ولطائف من روح الحـــديث ووحيه ، تجىء وفقا لكلمة يفـكه لها ، أو ردا على كلمة ينقم منها .

وللأستاذ (الكيلانى) شعر لم يظهر فى صحيفة ، ولم يثبت فى كتاب ولكن ذاع صـــيته فى الاندية الأدبية سريعا ، كما تذاع البشرى سريعا ، فاصبح شعره حديث تلك الأندية . وأصبح المتأدبون بين راو عنه ، أو آخذ منه !

على أنه كان يهرب من وصفه بالشاعرية هروب « فاعل الخير » من ذكر اسمه . ولكن الشاعرية تكمن فى شعره كمون الرى فى الماء ، والبرء فى الدواء .

واليكم هذه القطعة الرائعة ، وقد جاء بها على لسان والدة (جان) بطل قصة (صياد الخيال) التى ترجمها عن « جان سارمان » وهى أولى مواد كتابه (روائع من قصص الغرب) وذلك كعادته فى تدعيمه للكتب من شعره المصفى ؛ والقطعة تقول :

عصف الدهر بآمـــــال محب مســـــتهام
وأبى الشـوق على عيـــن محـب أن تنـــام

***

كـــم تذوقت أفاويـــق وصـــال ومـــدام
وتحملت من الهجـــر أفانين الســــقام

***

ســـوف تخبو نـار حبى ما لأمـــر مـن دوام
ثم أنســـاك ، وتنســـانى ، وينســـانا الغرام
ثم لا يبقى – على الايـــام حب ، أو خصام

فانك لتقرأ فى هذه الابيات القصيرة ، قصة الحب من بدئها الى نهايتها ، فى أرق لفظ ، وأدق وصف . وانك لترى فيها التصوير الصادق المؤثر لآلام المحب واشـــجانه ، وفنـــون الهوى وألوانه . ثم ترى – فى ختامها – كيف تكون السلوة ، والنسيان ، وكيف أن الزمان فى سيره الوئيد ، يحمل معه – رويدا رويدا – كل ما انطوت عليه الصدور من عواطف الحب والبغض ، ويمحو من صفحات العقول –شيئا فشيئا– صور الأحباء والخصوم .

ويلقى من حوادثه المتتابعة رمادا يطفىء النيران المشبوبة فى القلوب . فلا يلبث المحب المولع أن تخبو ناره ، ويستقر على النسيان قراره ، ولا يلبث المغيظ المحنق أن يشغله صديق عن خصيم ، ويلهيه جديد من الحياة عن قديم .

شعره القصصى

ثم نستعرض من قطعة شعرية من تأليف الكيلانى تحكى حوارا بين « صفاء » و « أم قشعم » فحينما عرف صفاء حديث العنكبة استولت عليه الدهشة والحيرة فلم يسمع قولها حين قالت :

وقد تأكل العنكبة الجندبا ... وتهلك الزنبار والعقربا
وكم بعوض — فى حبالاتها ... راح أسيرا يبتغى مهربا
فخدرت — بالسم — أعصابه ... وأنشبت — فى جسمه — المخلبا
وقد يصيد الضفدع العنكبا ... كما تصيد البومة الارنبا
وتأكل القطة فأرا ، ولا ... تبقى على فرخ صغير ، حبا
وقد ألفنا كل هذا فلم ... ندهش له ، مهما بدا مغربا
لكن ما حير ألبابنا ... ان تأكل العنكبة العنكبا

فأجابته (أم قشعم) :

ان تأكل العنكبة العنكبا ... او تأكل الأم ابنها الانجبا
او يأكل الآباء ابناءها ... أو تأكل الاخت أخا أو أبا
او تأكل الزوجات أزواجها ... فليس هذا حادثا مغربا

***

اما ترى الاسماك قد شابهت ... فى قتل ما تنجبه العنكبا
تلتهم الكبرى صغيراتها ... ويأكل الحوت ابنه الاقربا
وانتم الناس على رشدكم ... صرتم مثالا للأذى مضربا
لم ترحموا طيرا على غصنه ... رتل لحنا شائقا معجبا
ولم تغيثوا بائسا معدما ... ولم تقيلوا عاثرا مذنبا
وكم أكلتم لحم اخوانكم ... ميتا ، ولم ترعوهم غيبا
فلا تعيبونا بأدوائكم ... فقد غدا من عابنا : أعيبا !

من السيرة النبوية :

حوار (مسرحى) حول مولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

لم يكد عبد الله ـ والد الرســـول صلى الله عليه وسلم ـ يتزوج السيدة آمنة .. حتى حملت منه .

ـ ولم يلبث الموت أن اخترم حياته فى مقتبل شبابه ، فى مثل عمر الورود النضرة ، والازاهير الشذية العطرة .

ـ مات والده قبـــل أن ينعم برؤية ولده العظيم ، الذى أشرقت الدنيا بنوره الباهر .

ـ ولد الرسول بعد أن مر على وفاة أبيه عبدالله عدة أشهر ، فأودع الله تعالى قلب جده عبدالمطلب حبا خالصا للرسول .

ـ ذلك من ألطاف الله .

ـ فعنى به جده ، كما عنى بأبنائه .

ـ شد ماحزنت آمنة ليتم ولدها .

ـ لا عجب فى ذلك ، فقد كانت آية من آيات الوفاء لزوجها .

ـ وكانت الصدمة قاتلة فلم ينقذها غير الصبر .

ـ لقد كان (عبد الله) زين الشباب فى عصره .

ـ كان ، أعلى أمثلة الشجاعة والبر والنجدة طفلا وشابا .

ـ كما كان ، أعلى أمثلة فى الوفاء والبر صديقا وزوجا .

ـ فلا غرو اذا استولى على زوجته الحزن لفقده .

ـ ولا عجب اذا برح بها الحزن ، وبلغ منها مبلغا لم يكد يصل اليه أحد .

ـ صدقت ، فقد جف لبنها من شدة الألم .

ـ كيف عاش طفلها بدون غذاء ؟

ـ لقد حرم ثدى أمه ، ولكن الله أرأف وأرحم من أن يترك رسوله وصفيه بلا غذاء ، بعد أن حرم لبن أمه .

ـ تداركته عناية الله ، فكيف ؟

ـ أرضعته ثويبة .

ـ من ثويبة ؟ فما سمعت بها قبل اليوم .

ـ جارية عمه أبى لهب .

ـ ما أعجب قدرة الله ، وما اخفى الطافه .

ـ كأنما أرضعته جارية عمه أبى لهب ، ليكون سببا فى موت سيدها غيظا .

ـ صدقت ، فقد كان أبو لهب من ألد أعداء الرسول ، وقد هلك من شدة الغيظ ، حين سطع نجم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتشرت ، رسالته وتبينت حجته .

ـ هلك بعد أن تم انتصار الرسول فى غزوة بدر .

ـ وكانت البدويات يقبلن على مكة فى موسمين من كل عام ـ كما تعلمان أيها الصديقان ـ ليرضعن أبناء الأغنياء .

ـ ولكنه لم يكن غنيا ، فمن التى تولت أرضاعه ، وكيف رضيت أن ترضعه بلا مقابل ؟

ـ أنت على حق فى هذه الملاحظة ، فقد توجهت المرضعات الى أبناء الأغنياء . ولم يخطر ببال احداهن أن تقبل على ارضاع ذلك الطفل الصغير .

ـ كانت كل واحدة منهن لاتكاد تسمع أنه يتيم حتى تعرض عنه .

ـ فانصرفن عنه جميعا .

ـ وبقى بلا مرضعة ؟

ـ كلا ياصاحبى العزيزين ـ فان الخير لم ينضب معينه من الدنيا . فقد عطف عليه قلب احدى هؤلاء البدويات .

ـ الآن ذكرت مانعنيه ، لقد تطوعت حليمة لارضاعه ، بعد أن انصرفت عنه أول الأمر .

ـ من أى القبائل كانت حليمة ؟

ـ من قبيلة بنى سعد .

ـ فكيف رضيت بارضاعه بعد أن أنصرفت عنه ؟

ـ أراد الله سبحانه ألا تجد حليمة أحدا من أطفال الاغنياء ترضعه ، فرأت أن رحلتها غير مثمرة ، ولم تشأ أن تعود الى البادية بغير طفل ترضعه .

ـ لم لا تقول : ان الله قد ألهمها العطف ، وقذف فى قلبها الرحمة له والجذب عليه ؟

ـ بلى .. وقد حبب اليها ذلك الواجب الانسانى النبيل . وكافأها الله على صنعها أجزل المكافأة .

ـ اى مكافاة تعنى ؟

ـ لم تكد تصحبه معها حتى يسر الله تعالى لها سبيل الخير ، لقد فتح لها ذلك الباب .. كل أبواب الخير والبركة . وجلب لها كل أسباب الرخاء والنعيم .

ـ كافأها الله على معروفها ، فسمن أغنامها ، وكثر بناتها ، وأفاء عليها .

من المحفوظات الكيلانية :

ظلى

أنت يا ظلى رفيق عمرى
أنت يا ظلى عجيب الامر
كم تطول :
ثم تبدو غاية فى القصر
أو تزول :
ثم تعدو بعدها فى أثرى

***

ان ظلى مشبهى كل الشبه
كلما استيقظت صبحا ينتبه
قافزا خلفى طورا ساكتا
دائما لم يدر معنى للكلام
حركاتى كلها يأتى بها
لا يبالى سهلها من صعبها

***

أنت قد حيرتنى فى أمرى
انت خلفى حين أجرى تجرى
أنت أن أبطىء .. بطىء السير
أى نفع لك ؟ لست أدرى

فخر المجد

انا مازلت تلميذا صغيرا
ولكنى على صغرى مجد
اسير الى العلا سيرا حثيثا
وأنشط نحو غايتها وأغدو
وليس يضيرنى صغرى اذا لم
يثبطنى عن العلياء جهد
وليس بنافعى طول وعرض
اذا لم يغننى فهم ورشد
فليس يقاس انسان بشبر
ليعرف قدره ، ان جد جد
ونبت القمح مرتفع قليلا
ولكن ، هل له فى النفع حد ؟
هو القوت الذى نحيا جميعا
به ، وهو الذى ما منه بد
وقد يعلو سنابله نبات
قليل النفع يعجب حين يبدو
وكم عود من القصب اعتلاه
وما هو رفعة للقمح ند
وفخر المرء علم يبتغيه
واخلاص يحليه ، ورفد

***

وسوف أكون مثل القمح نفعا
وقدما أحرز السبق المجد
نعم ، وأحب فعل الخير جهدى
وأسهر للعلا والمجد ، بعد
وتدرك همتى شرفا ومجدا
وحسبى غاية .. شرف ومجد

صحبة الكرام

شـــقائق النعمـــان ضمت مـــرة
في طاقة للزهر والقرنفـل
فاكتسبت في لحظـــة من طيبه
ومن يصـــاحب ذاكمـــــال يكمل

مفتاح القراءة :

كم من حديث معجب شـــــائق
تتـــلوه امي وابي مـــن كتـــاب
هذا عجيب ، فمتى اغتـــــــدى
مثلهمـــا أقـــرا بين الصحـــــاب

كم ذا أجيــــل العين في صفحة
منقبـــا لا يعتريني فـــتور
وأنثني من غـــير جـــدوى ومـــا
فهمت شـــيئا بين تلك الســطور

لــكن امـــي اذ رأت حـــيرتي
قالت : اذا ما رمت هـــذا المرام
فهـــاك مفتـــــاحا لاســـراره
هـــاك كتـــــابا فيــه سر الــكلام

فيه حروف الهجـــاء

تبدأ بالاحـــرف فيـــه ، ولا
تلبث حتى تقـــرأ المفـــردات .
وتقرأ الأســـطر من بعدها
فيصـــبح الصـــعب من الهيـــنات

وبعد جـــد واجتهاد ترى
أنك تتلو مثلنا في الكتاب
تقرأ ما يشجيك من قصـــة
ومن حديث معجب مستطاب
في أي وقت تشـــــــاء

الجمال الســـــاحر

حســـن هـذا الخـد ان قيس به
كل حســـن كان عنـه قاصـــرا

كم شموس قد خبت أضواؤها
حين لاح الخـد نورا باهـــرا

فجمـــال الوجـه والأخـلاق قـد
ســـطعا للناس صبحا ســـافرا

منطق حلو ، وحســـن رائـع
جمعا هذا الجمـال الســـاحرا

وطنيته

عاصر الاستاذ « الكيلانى » النهضة الفكرية منذ بدايتها ، وساهم فيها منذ قيامها ، وأوذى فى سبيلها .

ولما اشتعلت الثورة المصرية ، قذف فى أتونها بقصائد من الشعر الحماسى الجديد ، دلالة على وطنيته الصادقة . ولقد أجرت احدى الصحف استفتاء حول العوامل التى تحقق الحرية للوطن . فأجاب الكيلانى : انى أترك الجواب للبحترى ، شاعرنا العربى العظيم ؛ بما أبدع من صور المتناحرين والمتباغضين ، وصور ما يعانيه قومه ، من نكبات التفرق والانقسام والتناحر والبغضاء ، حتى أصبحت الصدور تغلى من الغيظ غليان المرجل . والبحترى يقول فى هذا المعنى :

وفرســـان هيجاء تجيش صـدورها
بأحقـــادها ، حتى تضيق دروعها

تقتـــل من وتـــر أعز نفوســـها
عليها بأيد ما تـكاد تطيعهـــا

اذا احتربت يوما ، ففـاضت دماؤها
تذكـرت القـــربى ففاضت دموعها

شـــواجر أرمـــاح ، تقطـــع بينهـــا
شـــواجر أرحام ملوم قطوعهـــا

اذا افترقوا عن وقعـــة جمعتهمو
لأخرى : دماء ما بطل نجيعهـــا

تذم الفتاة الرود شـــيمة بعلهـا
اذا بات ـ دون الثـأر وهو ضجيعها
حمية شعب جاهـــلى ، وعـــزة
كليبية أعيـا الرجال خضوعها !

فالتفرق ٠٠كما ترون٠٠ اصل الاحتلال ، ومصدر البلاء ٠ والاتحاد وسيلة الاستقلال ـ ومحقق الجلاء ، ولا معدى عن الاتحاد بأشمل معـانيه وأوسع حدوده . وتوحيد الجهود والنيات ، والاهواء والاهداف .

وللكيلانى القصيدة التالية :

يانيـــل ، قد قام منـــا للعـــلا داعى
من بعد اغفـــاءة طالت وتهجـــاع
يا نيـــل ، انا افقنـــا بعـــد نومتنا
نبنى العلا بفؤاد غـــير مرتاع
يارب شيخ حنـــاه الدهـــر أقصـــده
ســـهم الردى بين أحناء واضلاع
قد غيبوه فلم نســـمع له خبرا
وازهقوا روحه لم ينعه الناعى
فاضت الى الله ، تشكو ظلم قاتلها
وجور وغـــد ، لئيم الطبع : خداع

قـــالوا : أولئـــك اغنـــام مضـــللة
يـــلم أشـــتاتها من عنـــدنا راع
قلنـــا : بنو النيـــل آساد مجمعة
فرقتموهم بأحـــزاب وأشـــياع
نعم ، وأوقعتمو ما بينهم احنـــا
بذرتموهـــا بأرض ذات امـــراع
فأخصبت ونمت ، بان نومتنـــا
وقد أفقنا ، فذوقوا خيبـــة الساعى

منزلته بين معاصريه :

تجد الامم الحية كلما نبغ فيها احد ابنائها فى اية ناحية من نواحى عظمتها ، أشادت بذكره ، وأقامت له حفلات التكريم : حكومة وشعبا ، تقديرا للفضل ، وتشجيعا على الازدياد فيه ، وايذانا بأن النبوغ يجد

من الاجلال والاكرام المحل العظيم ، فيجرى الكرام على آثاره ، وينبه الغافلون ، ويعمل العاملون .

واني سأسرد كلمة من مجموع كلمات عدة ألقيت في حفل تكريم « كامل كيلاني » سنة ١٩٣٤ ، اذ نادوه نقيبا للادباء .

قال كاتبها حين ذاك :

لقد رأينا مصر ، وقد اخذت ، منذ نصف قرن أو أكثر ، تنفض عنها غبار الخمول الذى خلفته عهود الظلم والجهالة ، وظهر فيها أفراد ضربوا فى نواحى العظمة بسهم ، وأفادوا بلادهم ، بما وهب لهم من اخلاص وعبقرية ، فأحلتهم فى سويدائها ، وأوسعت لهم على صفحاتها ، يخطون فيها جليل ما صنعوا ، فيكون لهم فى ميدان الشرف ذلك المجد الوطيد .

على أن الاستاذ (كامل كيلانى) فاز بالقدح المعلى فى الادب والفن .

ثم ان أشعاره تقتضينا أن نكرمه فى شخصه .

هذا الى أن التأليف والترجمة ، من اللغات الحية التى أضاف بها آثارا وروائع من أقلام كتاب الغرب ، وذخائر من نفائسهم الى لغتنا الشريفة ـ كل ذلك نقله بأسلوب ممتع ـ فخدم اللغة والبلاد خدمات ، مهما أطنب القلم فى البيان ، فلن يبلغ غاية الوصف .

وهذه كتب الادب التى قدمها نابغتنا للمتأدبين بعد أن ألبسها من عبقريته ، وخلع عليها من ثمار قريحته ، فقرب مواردها ، وجعل تذوقها على طرف الثمام ، حتى جعل أمثال : « ابن الرومى » و « المعرى » و « ابن زيدون » يخاطبون هذا العصر بلغة يفهمها الكبير والصغير .

هذا شأن (كامل كيلانى) فى هذه النواحى .

أما شأنه فى القصص ، وفيما يتعلق بأبنائنا ... رجال الغد ، فعجب أى عجب !

وما الاقمار فى بهائها ، أو الشهباء فى عليائها ، بأكبر شهرة، وأجل نفعا من قصص (كامل كيلانى) المفيدة .

فصار اسمه مرادفا لآية التأليف . وقد فتح لنا فتحا فى تربية الاطفال ، على خير مثال .

ثم تابع المحدث فى حفلة التكريم حديثه قائلا :

وحسبنا شهادة بعض أولئك الذين ينفون عليه فضله ومكانته . فقد أنطقهم الله بالحق انطاقا سجل على صفحات الخلود .

والانسان يحار : هل يهنئه على ما امتاز به من حسن الاختيار وبراعة الاسلوب ، أو يهنئه بما هيأ لابنائنا من كتب وقصص ،كان لهما أثر طيب واضح فى تنشئة عقولهم ، أو يهنئه على وفرة نشاط ،وجهت مجهوده وجهات .. كلها صالح ومثمر ،أو يهنئه بنبوغه فىعديد اللغات. ونقله لنا منها مشكاة وضاءة مصابيحها ، فكانت للادباء والمتأدبين نهجا قويما فى تربية الذوق ، واتساع دائرة الخيال وتزويده بثروة علمية جليلة ؟

والحق ... اننا نهنئه بهذا جميعا ،ونهنىء به وطناأنجبه كما أنجب كثيرا من الموهوبين ، وخلد العاملين .

الفصل الرابع

الرائد يتحدث

التربية وضرب الأمثال :

كثيرا ما لجأ أبى ، فى تربيتى ، الى ضرب الامثال ورواية القصص، اذكر لكم أن بعض أشقياء الصبية أغرانى بتسلق الترام ، وأنا صغير ، فرآنى أبى ، وأنا أفعل ذلك ، ولم أره .

فلما عاد الى المنزل ، قال لى :

« لقد حدث اليوم ... يا ولدى ... أمر عجيب . فقد هوى ولد شقى تحت عجلات الترام ، فقطعته شطرين ، وظل الناس يلعنونه ، ويلعنون أهله .

وهنا ذكرتك يا ولدى ، فحمدت الله على حسن أدبك ، وبعدك عن هذه الدنايا .

أقول لحضراتكم : ان الأرض كادت تغوص بى ، وكان هذا آخر عهدى بهذا العمل الممقوت .

وفى ذات يوم قلت له .. وكنت طفلا : « انى لأخشى العفاريت والحشرات المؤذية ، حين أصعد سلم البيت فى ظلام الليل » .

فقال لى :

« من الذى يحرسك وأنت نائم ؟ » .

قلت : « هو الله » .

قال : « اتظن أن من يحرسك وأنت نائم ، لا يحرسك وأنت يقظان ؟ » .

فكان ذلك آخر عهدى بالخوف .

ولقد قرأ لى أبى كثيرا من القصص فى فجر حياتى كان لها أثر كبير فى نفسى وأدبى وخيالى .

القدوة الحسنة :

وجدت أبى ،وأنا طفل ، لا يكاد يترك الكتاب من يده • فأحببت أن أكون مثله ، وقلدته فى ذلك ، حتى أصبح ذلك دأبى الى الآن • وانقلب التطبع طبعا أصيلا •

ووجدته يصل الرحم ، فقلدته فى ذلك •

ولو رأيته ••• على عكس هذه الصفات ••• لقلدته فيها كذلك ؛ وما أصدق قول القائل :

مشى الطاووس يوما باعوجاج	فقلد شكل مشيته بنوه
فقال : علام تختالون ؟ قالوا :	بدأت به ونحن مقلدوه
فخالف سيرك المعوج واعدل	فانا •• ان عدلت •• معدلوه
أما تدرى أبانا كل فرع	يجارى بالخطى من أدبو ؟
وينشأ ناشئ الفتيان منا	على ما كان عوده أبوه

روائع من أحاديث جحا :

نشأت ـ منذ طفولتى ـ أحب الكتب • وقدنما هذا الحب فى نفسى حتى أصبح كلفا وهياما • وقد فجعنى كثير من أصدقائى فى كتب لا أستغنى عنها ، واستأثروا بها دونى • ورأيت ـ والحاجة تفتق الحيلة ـ أن أضع حدا حاسما لهذا العبث • وظللت أتلمس الحجج والمعاذير ،حتى اهتديت الى حجة بارعة أعتذر بها لكل صديق ـ مهما بلغت منزلته من نفسى ـ لأتخلص من اعارته أى كتاب يطلب •

ولم أخترع هذه الحجة اختراعا ، ولكننى اقتبستها من منطق (جحا) وما أبرع هذا المنطق فى التخلص من مآزق الحياة ومشاكلها المعقدة !

فقد زعموا أن (جحا) اضطر الى الخطابة ، ة • فقال لسامعيه : « أتعرفون ما أقوله لكم ؟ » •

فقالوا : (لا)

فالتفت اليهم ساخرا ، وقال :

اذن فأنتم جهلاء ، وليس فى قدرتى أن أخطب فى الجهلاء •

فلما أحرج فى موقف ثان ، أصر سامعوه على أن يقولوا له عكس ما أجابوه به فى المرة الاولى ، فما كاد يقول لهم :

« أتعرفون ما أقوله لكم ؟ » .

حتى قالوا له : « نعم » .

فنزل عن منصة الخطابة ، وقال لهم :

اذن فأنتم فى غير حاجة الى ما أقول !

فلما أحرج للمرة الثالثة ، أصر سامعوه على أن ينقسموا فريقين : أحدهما يقول : نعم ، والآخر يقول : لا .

وما كادوا يفعلون حتى التفت اليهم جحا هازئا ، وقال : (الآن علمت أن فريقا يعلم ما أقول ، وفريقا يجهله ، فليخبر من علم ... من لم يعلم !) .

وهكذا خرج بلباقته من تلك المآزق الحرجة .

وقد اخترعت حجة تدفع عنى الحاف المستعيرين ، واقتبستها من منطق (جحا) البارع ، فكنت أقول لكل من تحدثه نفسه أن يفجعنى فى كتاب ، قائلا :

« ان هذا الكتاب رخيص الثمن ، فما أيسر عليك أن تشتريه . وان كان ثمنه فادحا ، فما أجدرك أن تتركه لى ، ولا تفجعنى فيه . فليس فى قدرتى أن أشتريه مرة أخرى . ولست أستطيع أن أستغنى عنه يوما واحدا » .

طريقة احتفاظه بالكتب :

وهكذا استطعت أن أحتفظ بكتبى كاملة غير منقوصة ، ونما عدد الكتب الى أن ضجر بها أهل بيتى ، وضجرت بها معهم ، حتى كنت أفضل — فى بعض الاحيان — أن أشترى الكتاب الذى تعرض اليه حاجتى ، على أن أبحث عنه بين تلك الأكداس .

وبعد افتكار طويل اهتديت الى طريقة أخرى ، تيسر على البحث ، وتقطع أمل كل مستعير ، تلك هى أنى قسمت الكتب الى مجاميع ، تضم كل مجموعة منها عدة كتب ، يصعب حملها ، ويستحيل التفريط فيها . وربما وقفت فى فترات راحتى بين قماطر الكتب ، وأجلت لحاظى فى

محتوياتها ، وأطلت تأملي ، وأنا مأخوذ بروعتها كما يؤخذ البستاني بروعة الازهار ·

واني لأذكر أنني وقفت ـ ذات يوم ـ أتخير كتابا أقرؤه على عادتي فاسترعى بصري مجلد ضخم يحتوي ديواني (الشريف الرضى) و (البحترى) · فعجبت من ضخامته ، وقلت في نفسي :

(هذا مجلد شرقي ضخم ، يحوى مئات من الصفحات ، في كل صفحة منها أسطر كثيرة ، وفي كل سطر منها فكرة رائعة ، أخرجهاذهن ممتاز ، وصاغتها شاعرية فذة · فأى كنز حافل هذا المجلد الضخم ؟)·

وذكرت بعض المفتونين الذين يتهمون الادبالعربي بالعقم،ويفترون على أفذاذ العرب أنهم سطحيون ، وهم لم يقرءوا من كل هذه الكنوز الا مختارات متفرقة مشوهة،لم يوفق مختارها في شيءكما وفقوا فيالاهتداء الى مجموعة يجدر بهم أن يطلقوا عليها اسم (مجموعة مختارة من الشعر السخيف !) وقلت في نفسي :

(لعل هؤلاء الأدباء الناشئين المفتونين بالادب الغربي ـ الادب الغربي وحده ـ يقبلون على هذه الكنوز الشرقية ، ويمتعون أنفسهم بما فيها من طرف وروائع فيعرفوا أى تراث خلف لنا أسلافنا العرب ؟) ·

وما زلت غارقا في هذه الذكريات حتى قطعتها على فكرة طارئة ·

فقد بدأت نفسي تتنمر ، وخشيت أن أرمى بالاسراف والاغراق والتحمس الكاذب للعرب وللكتاب العرب · فلم أطق صبرا على هذه التهمة ، وأردت أن أبرر ـ بيني وبين نفسي على الأقل ـ ما ذهبت اليه من تمجيد هذه الروائع ، وأثبت بالبرهان أن فيكل سطر من هذهالصفحات جمالا أخاذا ، فتعمدت ألا اختار شيئا ، وأصررت على أن أفتح هذا المجلد الضخم ، وأقرأ أول ما يقع عليه نظرى من الشعر ، وأقيده في حافظتي، وما كدت أفعل حتى طالعني قول (الشريف الرضى) :

غرست غراساكنت أرجو لقاحها　　وآمل يوما أن تطيب جناتها
فان أثمرت لى غير ما كنت آملا　　فلا ذنب لى أن حنظلت نخلاتها

فغرقت في عالم من السحر ، ثم قرأت بعد هذين البيتين الابيات التالية :

من يكن زائرى يجدنى مقيما　　أتبع الفائتات بالرائعات

من ندامى ـ على الهموم ـ قعود يدعمـون الأذقان بالراحات
كلما أذرفوا الدمـــــع أمدتـ هم دواعى الهموم بالعبرات

فتركت الكتاب ، وقلت فى نفسى :

(حسبى من القلادة ما أحاط بالعنق) ، ورحت منتشيا من فرط السرور بما قرأت ، وقد اقتنعت نفسى بأن حماستى للعرب وآثار العرب وروائع العرب ، حماسة رشيدة ، لا أثر للاسراف والتعصب فيها ٠

وكما اننى أقرأ روائع الفحول من أفذاذ الشرق ٠٠٠ من غير أن أكلف نفسى الاختيار٠٠٠ لوثوقى من ابداعهم دائما ،فاننى شديد الولع ـ كذلك ـ برؤية أى بلد شرقى ، من غير أن أعنى نفسى بتخيره ، لاننى أحس لكل بلد من البلاد الشرقية روعة لا تقل عما أحسه لغيره من هذه البلاد٠

وكما أننى أمقت المفاضلة بين الشعراء ، والمفاضلة بين الكتاب ، والمفاضلة بين القصائد ، فاننى أمقت ـ كذلك ـ المفاضلة بين البلدان ! وليس من الانصاف أن تفاضل بين حسناوين ، قد كملت محاسنهما ، وبرع جمالهما ، واستبد سحرهما ٠ ولكن من البر بنفسك أن تتمتـــع بحسنيهما ٠

كيف نحبب القراءة الى الاطفال ؟

زعموا أن ثلاثة أمراء ، اخوة أشقاء ، خرجوا يتنافســـون فى مهر بنت عمهم السلطان ، بعد أن تواعدوا على الاجتماع آخر العام فى مكان بعينه ، ليروا من يظفر بأنفس هدية للأميرة ٠

فلما التقوا رأوا أحدهم قد ظفر بمنظار سحرى ، يرى فيه النـاظر كل ما يدور بخلده ، ولو كان فى أقاصى الدنيا ٠

وظفر ثانيهم ببساط سحرى ، يحمل راكبه محلقا به فى كل جو من الأجواء ، فيبلغه غايته فى لحظات يسيرة ٠

وظفر ثالثهم بتفاحة شافية ، تبرىء من السم وتعيد الحياة الى من اشرف على التلف ٠

ونظروا فى المنظار فاذا الأميرة على فراش الموت تحتضر ، فأسرعوا الى البساط ، فاذا بهم عندها فى الحال ، وأدنوا التفاحة منها فشفيت على الفور ٠ وحاولوا أن يعرفوا أيهم صاحب الفضل فى شفائها فلم يهتدوا اليه ٠

فلولا المنظار ما عرفوا مرضها الخطير · ولولا البساط لهلكت قبل أن يصلوا اليها · ولولا التفاحة الشافية ما كان لوصولهم فائدة · فاذا نقصت واحدة من هدايا الاسطورة ضاع كل أمل فى شفاء الاميرة ·

وان فى هذه القصة مثلا دقيقا يوضح ما يجب على من يتصدى للكتابة للاطفال أن يهدف اليه ، ويجعله نصب عينيه ·

ان تحبيب الكتاب الى نفس الطفل ، أول طريق لتمكينه من القراءة ومتى ظفر بهذه الغاية ، ظفر بالمنظار السحرى ، الذى يرى فيه صاحبه كل ما يريد أن يراه ·

أما الاسلوب القصصى الساحر ، فهو بساط الريح الذى ينتقل بالقارىء الى أبعد الآفاق الفكرية ، فى لحظات يسيرة ، ويطير به على أجنحة الخيال البديع ، محلقة فى سماء الحقيقة ، دون أن يلحق به كلال ولا جهد ·

أما التفاحة الشافية ، فتتمثل فيها ما تتركه القراءة النافعة من آثار نفسية رائعة ، تشفى سموم الجهالة ، وتبرىء من النزعات العارمة التى تعجل بصاحبها الى الهلاك وتقذف به ·

ولنقف عند أول هذه الاهداف الجليلة لحظة قصيرة · فما تتسع هذه العجالة الخاطفة لغيرها ·

لنقف عند الخطوة الاولى ، وهى تحبيب القراءة الى الطفل ، وتمكين الفصحى من نفسه ، وحمايته مما يغمره من البيان المشوه المطرب ، وتجنيبه ذلك الشر المستطير من سيل العامية الجارف الذى كاد يغرقنا فى مستهل نشأتنا الثقافية ، وما زال يغمر الكثيرين من ناشئة اليوم ورجال الغد ، فيقضى على مواهبهم الفنية أو يكاد فى زمن حداثتهم · ولنهيىء لهم به بيانا عربيا خالصا ، يطبعهم على الفصحى منذ طفولتهم الباكرة · حتى اذا كبروا صارت لهم الفصحى ، كما كانت لغيرهم من أسلاف العرب فى عصور القوة الاولى ، سليقة وطبعا ، وأصبح البيان العربى متأصلا فى نفوسهم عادة وملكة · وتخلصوا من العجمة المتفشية بين شباب العصر وفتيته ·

أما الطريقة الى هذا الحلم الجميل ، فتحقيقها ميسور غير مستحيل: اننا اذا راقبنا كلام الطفل ، وهو فى مستهل طفولته ، رأيناه يلجأ الى تكرار الجمل · اذا قص علينا خبرا ، كأنما يتثبت من معانيها فى ألفاظها المكررة ·

فلماذا لا نكتب ، وهو فى هذه السن ، محاكين أسلوبه الطبيعى، فى تكرار الجمل والالفاظ ، لنثبت المعانى فى ذهنه تثبيتا ؟

ولماذا لا نكرر له الجمل برشاقة لنسهل عليه قراءتها ؟

ذلكم أجدر بنا وأليق ، فان لكل مقام مقالا .

ومن الحقائق المعروفة أن الطفل — فى هذه المرحلة — ملول ، يتهيب الكتاب . فلننزع من نفسه هذا الملل ، ولنحبب اليه الكتاب بكل وسيلة ولنبسط له الاسلوب تبسيطا ، مكثرين من الصور الجذابة الشائقة ، التى تستدعى انتباهه ، لنشعره أن الكتاب تحفة تهدى اليه اهداء، وليس واجبا يكلفه تكليفا . فان الطفل — اذا ساء ظنه بالكتاب — صعب اجتذابه اليه بعد نفوره منه .

وقد وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتب الاطفال ، توفيقا عجيبا ، فى تبغيض القراءة الى نفوسهم . فأصبحوا يمقتون الكتاب ، ويهربون من قراءته ، لان المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته . ولم ينزلوا الى مستوى مدارك الاطفال .

ومن الانصاف أن نقرر بصراحة انهم لم يضعوا كتبهم على نسق خاص أو منهج بعينه ، وأنهم فى تأليفهم لم يتشبعوا بفكرة فنية تنظيم الكتاب وتآلف أجزائه ، لانهم يقنعون بتصيد موضوعات الكتاب كيفما اتفق أن يتصيدوها ؛ فيخرج الكتاب خليطا مضطربا لاتؤلف بين أجزائه فكرة بعينها ؛ ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال .

ان الطفل ميال بطبعه الى الحكايات والقصص ، وهو بغريزته مفتون برؤية الصور الجذابة . فلنختر له منها ما يناسب سنه ، ويتفق مع ميوله ورغباته وتفكيره .

ولنقصر جهدنا فى استعمال الالفاظ الجديدة ، ولنؤلف له من الالفاظ القليلة التى يقرؤها فى بضعة أسطر عدة صفحات كاملة ، لندخل فى روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم ، وليست شاقة مضنية ، كما آلفها فى الكتب الاخرى . بل هى سهلة ميسورة ، وهى الى سهولتها ويسرها ممتعة شائقة ، تملأ نفسه بهجة وانشراحا .

وثمة يشعر الطفل بهمة فى نفسه . اذ يرى أنه يقرأ صفحة كاملة بجهد يسير . فهو لن يتم قراءة السطر الاول حتى يسهل عليه قراءة السطر الثانى والثالث والرابع وهكذا . لان الالفاظ لا تكاد تتغير فى الجمل الا بمقدار يسير .

وليجعل المربى همه فى قصصه ، قصة الرجل الذى كان يحمل الثور صاعدا السلم ، وهابطا به دركه ، دون أن يبدو عليه شىء من آثار التعب والجهد ، فلما سئل فى هذا أجاب قائلا :

لقد تعودت حمل الثور منذولادته كل صباح ، وما زلت أكبر ويكبر معى الثور ويزداد نمونا كل يوم زيادة قليلة مضطردة ، حتى اكتمل نماؤنا . ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد يوما عما كان فى سابقه . ولم أحس له ثقلا الى اليوم .

ثم انه على المربى أن يبدأ بتسلية الطفل ، متدرجا به كل يوم تدرجا بطيئا ، لا يكاد يشعر أن له أثرا ، مستعينا على هذا الغرض بالصور الملونة الجذابة ، والشكل الكامل ، والالفاظ السهلة . حتى اذا اطمأن الى الاسلوب السهل ، وامتلأت نفسه ثقة بقدرته على القراءة ، انتقل به الى المرحلة التالية ، فمزج له التسلية بالفائدة .

ثم عليه أن ينتقل به خطوة بعد خطوة ، حتى يرى فى فنون المعرفة وحدها متعة وتسلية لا يعدلهما شىء من فنون المتع وضروب التسلية .

ثم ان على المربى فى قصصه ، تحبيب الفصحى اليه ، وتعويده النطق بالصحيح من الالفاظ ، وتدريبه على الأخذ بالصحيح من الآراء ، فان الخطأ اللفظى ، كالخطأ المعنوى . فاذا انطبع أحدهما أو كلاهما فى ذهن الطفل صعب اقتلاعه فى قابل أيامه . ولا معدى للمربى عن ترغيبه – بكل ما يملك من الوسائل – فى الاسلوب الرائع والمثل الصالح فلا يسمح له بعبارة واحدة ، تقلل من شأن لغته ، أو تصغر من جلال القيم الخلقية .

ان تحبيب الكتاب ، وتخير الاسلوب الصالح ، وتثبيت الفضائل فى نفس الطفل هى الاهداف الثلاثة التى ترمى اليها تربية الاطفال بالقصص . ولا بد من اجتماعها ، لبلوغ الغاية المرجوة ، كما اجتمعت هدايا الامراء الثلاثة لشفاء الاميرة .

مشاكل المجتمع :

وجهت مجلة الاثنين الى الاستاذ (كامل كيلانى) خطابا من شاب يائس ، ليجيب عن مشكلته .

وفيما يلى نص الخطاب والاجابة عنه :

لا أعرف أبى .

هذه مشكلة شاب ، تكاد تعصف به الحيرة ، لانه لا يدرى ابن من هو ؟. فأرسل يسألنا الهداية والارشاد ٠

وهذه هي رسالته ٠ وهذا هو رد الاستاذ كامل كيلانى عليها :

ابن من أنا ؟

سؤال لم يخطر على بالى يوما أنى سأوجهه الى نفسى ، ولكنهأنذا أوجهه اليوم ، لا الى نفسى فحسب ، ولكن اليك ٠

واذا كنت أكتب اليك ، فأنا اذن أوجه سؤالى الى كل فـرد فى الشعب كذلك ٠

لقد نشأت وشببت وأنا لا أعرف لى أبا وأما ٠

وفى نشأتى وشبابى ذقت من ألوان الحنان ـ فى أحضان والدين كريمين ـ ما لا يطمع وليد فى أكثر منه ٠

ولعله بفضل هذا الحنـــان وحده كان نجاحى فى دراستى حتى حصلت على (بكالوريوس) كلية الزراعة ٠ وكان توفيقى فى حيـــاتى العملية ٠

لكن القدر ساق الى من أطلعنى على السر الرهيب ٠ فوقفت عـلى الحقيقة ، واذا الحياة تصغر فى عينى ، لاننى صغرت فى عينى نفسى !

انى مجهول الأصل يا سيدى ، لا يعرف أحد والدى ، وهـــذان الكريمان اللذان منحانى اسميهما ، وحنانهما ، انما منحـانى كل ذلك احتسابا ، بعد أن تسلمانى من أيد ليست بينها أيدى أمى وأبى ، لأنها أيدى موظفى الملجأ ٠

وبدأت ـ منذ عرفت هذه الحقيقة الفاجعة ـ أحس صراعا داخليـا عنيفا ، وأشعر بالخجل ازاء كل انسان ٠

وكيف لا ؟ ألست لقيطا ؟

فبأى وجه اذن ألقى الشرفاء ، وأتحدث اليهم ؟

وهذان الكريمان ـ اللذان غمرنى حنانهما وفضلهما ـ ما ذنبهماحتى يتحملانى بعد اليوم ويشقيا معى ؟

وطغت على أفكارى موجة تساؤل عاتية ٠ وأنا ـ فى كل حين ـ أتساءل : ترى من أنا ؟ وكيف ولدت ؟ وأين أمى ؟

أتراها الآن ذكرى فى ضمير الثرى ؟ ومن يدرى ؟

ربما كانت ــ حتى اليوم ــ حية تقاسى مرارة البؤس : خادمة فى أحد البيوت ، أو متسولة تسأل الناس ، فيعطونها أو يحرمونهـــا ، ويحتقرونها على الحالين · وقد أكون أنا من بينهم !

انى بائس معذب الضمير ياسيدى ، أرى الحياة ظلاما فى ظلام · واكاد أفقد تعقلى وايمانى كلما شرد فكرى فى مشكلتي الخطيرة ···

بربك يا سيدى : هل لديك لمثل حالى علاج ؟

وهل من حقى أن أعيش ، وأن أرفع رأسى ، كسائر الناس ؟

لا تعذب نفسك !

رد الاستاذ (كامل كيلانى) :

أيها الشاب المعذب ، اننى أربأ بشاب فى مثل ثقافتك أن يعــذب نفسه بهذه الاوهام ، فمن أين لك أن أمك لم تكن سيدة شريفة ، وأن فقر والدك أو فقده هو الذى انتهى بك الى الملجأ ؟

ومالك لا تشكر الله أنه وهب لك هذين الكريمين : فربياك وعلماك، ومنحاك حبهما خالصا ؟

ولماذا لا تبادلهما الحب ، فتسعدهما ، كما أسعداك ؟

لقد طلبت منا علاجا · فاذا كنت جادا فى طلبك فان خير عـــلاج لمثلك أن تسرع بالزواج · ففى حنان الزوجة ما يعوضك عن الحنان الذى فقدته ، وفى تبعات الزواج ما يشغلك عن التفكير فى أوهامك ·

وحين تصير أبا فلن تعود اليك هذه الهواجس التى تلح عليك ، وتقض مضجعك ، اذ يتحول كل اهتمامك حينئذ الى أولادك ، ويشغلك التفكير فى مستقبلهم عن كل شىء حتى نفسك !

ان ذلك القلق الذى تسميه ··· خطأ (عذاب الضمير) ليس الا أثرا للصدمة التى منيت بها ، وسيزول حتما · أما ضـــميرك فما الذى يقلقه أو يعذبه ، وما جنيت شيئا تؤاخذ عليه ؟

وان اردت أن تحسن الى أمك المجهولة التى تتوهم أنهـا ــ الآن ــ حية تعانى بؤس الحياة ــ ففى وســـعك أن تحسن اليها فى شخص كل بائس ومحروم ·

بقيت نظرة الناس اليك ، وأحب أن أؤكد أن الناس سيحكمون على شخصك وعملك • فلن يقدروك أو يحتقروك لانك ابن فلان أو لست ابن فلان • على أن العاقل لا يهتم الا بكلام العقلاء ، وهؤلاء أبعد ما يكونون عما تخافه وتخشاه !

اتخذ أيها العزيز من هذه الثورة ثروة ؛ وحول سخطك قوة تدفعك الى الامام • وعليك أن يغلى دمك بنار الاندفاع فى العمل • فهذا خير من أن يغلى بنار الغيظ والحقد على نفسك وأنت لم تجن ذنبا •

وثق أنك ستكون موضع احترام الجميع وتقديرهم ؛ فقديما قال الشاعر :

ان الفتى من يقول هأنذا   ليس الفتى من يقول كان أبى

سدد الله خطاك • وألهمك الصواب •

أسئلة صحفية

لقد سألنى كثير من الصحفيين : (أى بلد تفضل ؟) فكان جوابى دائما : (ان أجمل ما رأيته هو كل بلد رأيته) •

ولقد كان هذا السؤال – كلما ألقى على – يذكرنى بقصة ذلك العربى المنصف • حين طلب اليه أحد الخلفاء أن يفاضل بين نوعين من الحلوى . فسأل الخليفة أن يحضرهما اليه ، ليكون حكمه أصدق وأدق وأخذ يتذوق هذا مرة ، وذاك مرة . ثم التفت الى الخليفة – آخر الأمر – وقد تملكته الحيرة ، وقال :

(كلما أردت أن أحكم لأحدهما – يا أمير المؤمنين – قام لى الآخر فأدلى بحجته !) •

وهكذا يشعر المنصف ، كلما حاول أن يفاضل بين ربات الجمال ، أو بين فحول الكتاب ، أو بين أمهات المدن !

ففى دمشق ، وبيروت ، والقدس ، ويافا ، جمال أخاذ ، وذكريات عزيزة ، وأدباء فحول ، وشباب يلتهبون غيرة وحماسة واخلاصا ؛ وفيها عقول كبيرة ، ونفوس عامرة بالايمان ، زاخرة بحب الوطن العربى الذى يجمع بين أبناء العروبة ، على تنائى بلادهم ، واختلاف نزعاتهم ، وشتى شعوبهم •

وفى تلك البلاد الحبيبة – من روائع الطبيعة – ما يفجر بهجة

وانشراحا . وقد لقيت من زعمائها وقادة الرأى فيها أفذاذا . وسمعت منهم أحاديث معجبة ، لا تكفى هذه الكلمات الموجزة لسرد واحد منهـــا وتحليله واظهار مواطن قوته ، ومناحى جلاله وروعته ...

ومن حسن الملاءمة والانسجام أنك ترى روعة المناظر فى هذه البلاد متسقة مع صفاء نفوس أهلها ، وجمال أخلاقهم ، وحسن عشرتهم .

وقال الكيلانى : ان شعورى نحو مؤلفاتى شعور عجيب حقا.فاننى لا أكاد أفرغ من اظهار كتاب ، حتى أشتغل بغيره ، وينصرف كل جهدى وتفكيرى الى المؤلف الجديد ، فلا أكاد أفكر فى المؤلفات القديمة .

وكثيرا ما أتحاماها وأهرب من قراءتها بعد طبعها ، وربما ساقت المصادفات الى ، كتابا منها ، ولم أجد أمامى غيره ، فأفتح الكتاب ، مؤثرا القراءة فيه على البقاء وحدى بدون قراءة ، ولا أكاد أقرأ فيه حتى آنس به وأطرب لقراءته كأنى قارىء غريب ، وربما قرأت فصولا دون أنأشعر بملل . حتى اذا طويت الكتاب عاودنى شـــعورى القـــديم ، فما أود النظر اليه .

وقال الكيلانى : ان حرب اللغة العربية : بين الفصحى والعامية ، تلك التى كان يكلف بها الناس بالأمس ، انما هى جزء من خطة ضخمة يدبرها الاستعمار ، ويدعو لها .

فقد سمم المستعمر جميع الآبار الثقافية ، واستطاعت الثورة أن تحطم خططه ، خطة بعد أخرى ، الى غير رجعة .

وكانت الدعـوة الى اللغة العامية ، من بين هـــذه الخطط ، التى حاربها الكيلانى ، منذ عام ١٩٣٠ م ، عندما عقدت مناظرة ضـخمة ، بين (ابراهيم رمزى) و (لطفى جمعة) . وحضرها طائفة من كبار الادباء ، أمثال شوقى ، والهلباوى ، وصادق عنبر ، ومحمد الهراوى .

وقد انتصر يومها الحق بعد كلمة صريحة ، علق بهـــا على كلمتى المتناظرين ، وفند فيها العبارات التى استغلت للدعوة الى العامية .

الفصل الخامس

الكيلاني الطائف

انها ظاهرة غريبة ، لوحظت على الأستاذ الكيلانى ، فى أخريات حياته ، على الرغم من تحمله الآلام والسـقام ! فكنا نجده يخرج مع أحد رفاقه وسائق سيارته فى الصباح ، لزيارة أضرحة الأولياء والصالحين ، ويحسن فى طريقه على البائسين والمساكين ، وكأنه زهد الدنيا . واذا ما تذكر حقوق اخوانه وزملائه نحوه فى تلك اللحظات خرج فى المساء الى صديقه (فلان) فاذا وجده جلس معه ، أو طلب اصطحابه معه ، فيأخذه معه فى عربته ، لكى يذهب معه الى صديق آخر ، فاذا لم يجـده ، ترك له رسالة بسؤاله عنه ، وأنه يريد مقابلته . وأنه ان لم يتمكن الصديق من رؤيته ، فانه يطلب اليه الدعاء . وكان عزمه وهدفه الاطمئنان على جميع خلصائه وأصدقائه ، وكأنه يستودع فى هذه المرة كل من يراه ، ومن لم يره ، ويطلب اليهم جميعا السماح والدعاء !

الكلمة الأخيرة :

أحس الكيلانى قرب نهايته . وذلك لما كان يعانيه من آلام المرض . فكان رثاؤه لنفسه ، قبل أن يرثيه غيره .

حتى قال لأحد الصحفيين فى ذلك الحين :

(أعرف أننى سأموت . وأن هذه هى النهـاية . وان هذه هى الساعات الأخيرة فى عمرى . ولقد عشت حياتى أقرأ وجوه النـاس ، اعرف ما يقولون وما يخفون . وقد قرأت فى وجه كل من حولى أننى أموت) .

ثم استطرد ، فقال :

(اننى أريد أن أقرر حقيقة كبيرة . هى أننى لم آخذ مكانى قط ، ذلك بأن الحقد والحسد والغيرة أكلت كل المحاولات التى بذلت لأجل أن أجلس على المقعد الصحيح ، وأقف فى المكان المناسب . لكننى غفرت لكل الذين أساءوا الى ، ووقفوا حجر عثرة فى طريقى . غفرت لهم وعفوت عنهم . ودعوت الله أن يعفو عنهم أيضا) .

ثم قال :

لست أدرى : هل كنت أحس أننى سأموت بهذه السرعة ومازالت

كلمات المرحوم محمد على علوبة تطن فى أذنى ، وكانت دائما تدفعنى لكى أعمل وأكتب بلا راحة ولا توقف ؟ قال علوبة (باشا) يوما : ان (كامل كيلانى) هو صاحب الثورة (البيداجوجية) الرشيدة فى عالم الأطفال . هذه الكلمات القليلة كانت تكمن وراءهـــا كل جهودى طوال السنوات الماضية) .

ثم أضاف الى ما قال ، قوله :

(وهأنذا أموت ، واكتبوا عنى أنى لم أنل كلمة تقدير واحدة ، لم أنل جائزة .. مكافأة لى طوال حياتى) .

ثم قال :

(لاأذكر فى حياتى أننى قصرت فى واجب نحو صديق . وكان كل الناس أصدقائى ، وتمرد على أعدائى . فلم أستطع أن أروضهم) .

ثم تابع قوله ، فقال :

لقد أحست الدولة بجهودى أخيرا ، ويوم قررت كتبى على المدارس ، شعرت أن الصبح أوشك أن يطلع ، وذهبت لأشكر السيد (كمال الدين حسين) . فقال : لا شكر على واجب .

فقلت له : ان الشكر يجب أن يوجه للذين يقومون بالواجب . وهذا أول واجب تؤديه الدولة نحوى .

وسكت (كامل كيلانى) قليلا ، وحاول أن يحرك يده ليمسح عن جبينه سمة الموت فلم يستطع .

ثم أذاع السر الذى كان يكنه فى نفسه لأول مرة ، واستجمع البقية الباقية من قواه ، وقال :

ان الدافع الوحيد لترجمة النص الحرفى لقصة (أبو خربوش) الى الانجليزية ، التى نشرتها فى الكتـــاب ـ هو أنى كنت أستمع الى رائد الثورة المصرية ، وبطلها ، فى الاذاعة ، وهو يخطب بالانجليزية . فقلت : من يدرى ؟ لعل من بين الأطفال من سيواجه مثل هـــذا الموقف يوما ما فكيف لا يعرف لغة أخرى ؟ وترجمت الكتاب ، وأصبح يستطيع أن يقرأ بالعربية والانجليزية القصة نفسها بلغة بسيطة واضحة .

ثم أدار رأسه على فراش الموت · وقال :

لقد عشت حياتى أتمثل ببيتين من الشعر لم أتخل عنهما · وكلما تعرضت لمحنة أو مررت بامتحان لم أكن أفعل شيئا الا أن أرددهما ·

واليكم البيتين :

أبدعت فاحتمل المكاره صـــابرا ان الشـــقاء الحق أحســن مبدع
وعليـــك بالفزع المؤرق ، انه زاد الابى ، ولـــذة المتـرفع

وهذان البيتان من تأليفى ·

وبعد ساعات قليلة من الادلاء بحديثه الصحفى الأخير ، الذى سجله بنفسه على صفحات التاريخ غلبه الالم ، وأحاط به السقم ، وألمت به سكرة الموت ، فأدار رأسه الى القبلة ، ناطقا بالشهادتين، ثم فارقت روحه جسده ، صاعدة الى بارئها ، ذى الجلال والاكرام ·

وفاته :

عبر (كامل كيلانى) طريق الحيـــاة ، منتقلا الى جوار ربه مساء يوم الجمعة ، لثمان خلون من ربيع الثانى سنة ١٣٧٩ ، الموافق التـاسع من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م . ودفن صباح يوم السبت ١٩٥٩/١٠/١٠ ، بمدافن الأسرة ، عن ثلاثة وستين عاما ، حافلة بأجل الأعمال وعظيم الاثر ·

فارق (كامل كيلانى) الحياة ، بعد جهاد طويل ، ومعارك كبيرة ، بينه وبين المرض المضنى ، وكانت الحرب بينهما ســـجالا ، وفى النهاية انتصر المرض ، وألم به الموت ·

فسبحان من له البقاء ، واليه المرجع والمصير ·

ترك (الكيلانى) الدنيا ، بعد حياة عريضة : حفلت بالعمل الأدبى فى ميادينه المختلفة : النقد والشعر والقصة ، وقد صدرت الصحف فى صبيحة يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ ، تحمل نعيه ، فى عبارات تصور مدى الخسارة التى لحقت (أسرة القلم) فى عالم البيان ، بوفاة (رائد أدب الاطفال) و (نقيب الأدباء) و (بانى الأجيال) ·

علم من أعلام الادب العربى المعـــاصر ، استطاع أن يشق طريقـــه بجهده ، وأن يكتب صفحة مشرقة من صفحات العمل الايجابى البعيد المدى فى حياة الفكر العربى · فقد أسس مدرسة لفن (قصص الاطفال) · وكانت

طفولته منذ بدايته مثلا يمكن أن يتخذ منهاجا للتربية المنزلية فى تنشئة الطفل ، وتكوين الرجل •

فمن وفاء (كامل كيلانى) لوالده الشيخ (كيلانى ابراهيم) أنه أهدى اليه أول كتاب له قائلا :

(رأيتك ، منذ حداثتى ، تقرأ الكتاب ، وتتخذه صـــاحبا ورفيقا ، فحببنى ذلك الى الكتاب ، وما زلت أحبه الى اليوم •

ولقد طالما سلكت فى تأديبى طريق الوعظ والقصص ، فكنت أول من حبب لى هذه الفكرة . وكان لك الفضل الاول فى أخذى بهذا الاسلوب وتمكينه من نفسى • وكنت نعم القدوة لابنك فى تربيته ولده (مصطفى) واخوته) .

فمن هذا الأدب الحكيم أخذ ــ اذن ــ وسيلة تعليم الاطفال : عن طريق القصة والقدوة ، وعنه أخذ حب الكتاب ، والشغف بالمطالعة والثقافة • وكان من طبيعته أن يبذل غاية جهده فى سبيل التجويد والكمال لانتاجه الأدبى •

وكان (كامل كيلانى) وفيا مخلصا لوالديه • فلم يلق عقابا منهما • حتى انه قال :

(عشت طفولتى وصباى أنتظر (علقة) من أبى) •

ثم ان تنشئة الرائد بهذه الصورة الواضحة ، ورعايته للأطفال فيما بعد ، كانتا ومازالتا مما يحبب الأطفال فى (كامل كيلانى) •

وقد كانت وفاته خسارة كبيرة على المجتمع العربى •

مات (كامل كيلانى) وترك للأطفال أدبا حقـــا ، ينير لهم طريق المعرفة ، ويوضح لهم معالم الطريق •

ثم ان الشباب الذين كانوا أطفالا ، أصبحوا يبكونه أيضا ، ويتذكرون فضله عليهم بالأمس واليوم والغد •

وكان (كامل كيلانى) من أبرز كتابنا الذين شاركوا فى النشاط الادبى مشاركة بعيدة المدى ، أهلته لان يكون (نقيبا للادباء) على رأس عدد كبير من الشباب المثقفين الواعين ، الذين أصبحوا ــ من بعد ــ كتابا لامعين •• فقد اشترك فى تأسيس جماعة (أبولو) مع الدكتور احمد زكى أبى شادى • وأسهم فى تحرير عدد من الصحف الأدبية • ثم رأى أن

يقصر جهده على تنشئة الطفل ـ حتى أصبح رائدا للأدب القصصى ـ وبانيا للأجيال ..

تقدير الدولة :

ان (كامل كيلانى) مناضل قهر الصعوبات ـ ومهد الطريق ، حتى أكد مهمته كرائد لآداب الأطفال ـ بالرغم من العوائق والصعاب الطبيعية والمصطنعة .

فلقد عاش فى حاجة الى التقدير .

الى تقدير الدولة ، وتقدير الادباء . وفى حاجة الى الأمان من مكايد القاعدين المتخاذلين . وكان طوال حياته يقوم بعملية تعويض عن هذا التقدير والتشجيع . فقد اعتاد أن يذيل كتبه بعبارات التقدير والثناء المستفيض ، تلك التى كان يمنحه اياها ـ الأوفياء من الوطنيين ومن النابهين والعظماء فى الدول الشرقية الشقيقة . ثم أخذ منذ عهد الثورة يعرف الفضل لرجال الثورة ، ويسهم فى تحقيق أهداف الثورة .

اما الدولة ، فى عهد الثورة ، فقد سارعت عقب وفاته ، لتمنح اسمه شيئا من التخليد . فأطلقت اسمه على مدرسة ابتدائية بباب الخلق ، بجوار دار الكتب ، ورصدت جائزة باسمه لادب الاطفال ، تحت اشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

وأطلقت المحافظة اسمه على أحد الشوارع بحى شبرا .

وهذا عمل جميل ، وتقدير عظيم .

ولى المزيد من الرجاء ، والامل الوطيد ، فى مزيد من العناية والرعاية من رجال الثورة الانسانية ، فيما يأتى :

١ ــ جعل كرسى للأدب العربى وفن القصة فى الجامعات باسمه .

٢ ــ الاحتفال به فى الاذاعة والتليفزيون ، فى مختلف المناسبات الداعية الى ذلك .

٣ ــ اخراج سلسلة من مسرحيات الأطفال ، مستوحاة من قصصه الشائقة .

٤ ـ أن يقام له مهرجان أدبى سنوى ، كالأدباء الذين يحتفل بهم رسميا ، أمثال (الكواكبى) وغيره ٠

٥ ـ اقامة تمثال (للنقيب الراحل) فى أحد الميادين العامة ، اعترافا بفضله ، وتخليدا لذكراه (كهانس أندرسون) الدانمركى ، ذلك الذى اشتهر فى بلاد العالم ، وله فى الدانمرك تماثيل تملأ الميادين ٠ فلا أقل من جعل تمثال واحد ، لأديبنا الراحل ، الذى وهب حياته لخدمة الأطفال والناشئة ٠

والله نسأل المزيد من التوفيق والسداد لخير النشء واعلاء الوطن ٠

أهم المراجع

١ ــ مجلة المقتطف ·

٢ ــ محفوظات الأطفال ·

٣ ــ مجلة الأخاء ·

٤ ــ كتاب فن الكتابة ·

٥ ــ نظرات فى تاريخ الاسلام ·

٦ ــ صور جديدة من الأدب العربى ·

٧ ــ رسالة الغفران ·

٨ ــ الشعراء المعاصرون ·

٩ ــ مصارع الخلفاء ·

١٠ ــ ديون ابن الرومى ·

١١ ــ تاريخ الأدب الأندلسى ·

١٢ ــ مجلة العصور ·

١٣ ــ مجلة الحديث (بحلب) ·

١٤ ــ المجلة الجديدة (القاهرة) ·

١٥ ــ مجلة لغة العرب (بغداد) ·

١٦ ــ مجلة كوكب الشرق ·

١٧ ــ الرسالة ·

١٨ ــ أضواء على حياة الادباء ·

١٩ ــ مجلة الرسالة الجديدة ·

٢٠ ــ الزمان ·

٢١ ـ مجلة الدنيا (بيروت) ٠

٢٢ ـ مجلة صوت الشرق ٠

٢٣ ـ مجلة الاثنين ٠

٢٤ ـ مجلة الاذاعة ٠

٢٥ ـ مجلة التربية الحديثة ٠

٢٦ ـ منبر الشرق ٠

٢٧ ـ رحلات الى الاقطار الشقيقة ٠

٢٨ ـ مختارات كامل كيلانى ٠

٢٩ ـ محفوظات كامل كيلانى ٠

فهرس


الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ٨٤

الثمن ٢٠